إدوارد سعيد

الإسلام في عيون الغرب

ترجمة

حيّان الغربيّ

دار هدى

إدوارد سعيد

الإسلام في عيون الغرب

و مقالات أخرى

ترجمة

حيّان الغربي

دار هدى

- عنوان الكتاب : الإسلام في عيون الغرب و مقالات أخرى
- تأليف : إدوارد سعيد
- ترجمة : حيّان الغربيّ
- تصميم الغلاف و الخطوط : طرفة عبد الرحمن
- الناشر : دار هدى
- طُبِعَ بموافقة وزارة الإعلام رقم ٨٠٢٨١/تاريخ ٢٨/٥/٢٠٠٥

دار هُدَى
للنشر و الطباعة و التوزيع
سورية – حمص – هاتف : ٠٩٦٧٠١٥٢٨

الإسلام في عيون الغرب

باتت وسائل الإعلام تعيش في هوسٍ اسمه "الإسلام" ، الذي يحتل في قاموسها الدارج أحد معنيين فقيرين ليس من الممكن قبولهما ، فمن جهة يمثل الإسلام خطر السلفية التي استردت نشاطها ، والتي لا تشكل تهديداً بالعودة إلى العصور الوسطى فحسب ، بل تهدد أيضاً بتدمير ما أسماه السيناتور دانييل باتريك موينيهان النظام الديمقراطي في العالم الغربي . ومن جهة أخرى فُرض على الإسلام "تمثيل رد دفاعي مضاد لصورته الأولى ، خاصةً عندما ارتبط الأمر- نتيجة للتأثيرات الجغرافية على السياسة الخارجية للدولة – بالمسلمين الطيبين كالمجاهدين السعوديين والأفغان في مواجهة الاتحاد السوفيتي، إن كل ما يقال في معرض الدفاع عن الإسلام يتم حشره بشكلٍ أو بآخر في الصورة التبريرية التي تتبنى الدفاع عن إنسانية الإسلام ، وعن إسهاماته الحضارية والتقدمية ، و ربما الديمقراطية الملتزمة.

ويتماشى ذلك الرد الدفاعي مع المحاولة التوافقية السخيفة لمساواة الإسلام بالوضع الراهن في ذلك البلد أو غيره من البلدان الإسلامية والتي ربما كانت تكتيكاً حصيفاً في الحالة الإيرانية أثناء الإزاحة الفعلية للشاه ، ولكن بعد انقضاء تلك الفترة الحيوية وخلال أزمة الرهائن تحول التكتيك إلى عملٍ بارعٍ نوعاً ما.

.بماذا سيردُّ المدافع عن الإسلام عندما يُواجَه بالتقارير اليومية عن إعدام الناس على أيدي المتعصبين الإسلاميين ؟ أو عندما يعلن آية الله روح الله الخميني عن الدمار الوشيك لأعداء الثورة الإسلامية وفقاً لما ورد في أنباء رويترز في **١٩** أيلول **١٩٧٩؟** النقطة الأساسية هي أن كلا المعنيين المرادفين للإسلام لدى وسائل الإعلام يعتمدان على بعضهما البعض ، كما يتساويان في عدم قابلية دوام تلك الصلة المزدوجة.

كم بدا لي مجال الدلالة اللفظية للإسلام محدوداً وضيق الأفق بشكلٍ جوهري، بعد كتابي "الاستشراق" الذي صدر العام المنصرم .

وعلى الرغم من أنني احتملت مشاقّ عظيمة لأُظهر في الكتاب أن جوهر النقاش الجاري حول الشرق أو حول العرب والإسلام مبنيٌّ على الخيال ، فإنه غالباً ما فُسِّر دفاعاً عن الإسلام "الحقيقي".

وفي حين أن ما حاولت إظهاره هو أن أي حديث عن الإسلام كان خللاً جذرياً ، ليس فقط بسبب ذلك الافتراض غير المسوَّغ بأنه يمكن لحكمٍ مُطلقٍ مشحونٍ

أيديولوجياً أن يغطي كامل الغنى والتنوع الذي تتمتع به خصوصية الحياة الإسلامية (إنه لأمر مختلف تماماً) ، بل لأن ذلك أيضاً سيكرر ببساطة أخطاء الاستشراق عندما يدعي أن وجهة النظر الصائبة عن الإسلام هي أحد المحاور الثلاثة س أو ع أو ص.

وحيث أني تلقيت عدة دعوات من مؤسسات مختلفة تطلب مني إلقاء محاضرات عن المعنى الحقيقي للجمهورية الإسلامية أو عن الطريقة التي ينظر فيها الإسلام للسلام فوجدت نفسي أمام أمرين : إما أن أدافع عن الإسلام – وكأن الدين بحاجة لذلك النوع من الدفاع – أو أن ألتزم الصمت فأبدو كمن يوافق ضمنياً على تشويه سمعته.

لكن الرفض وحده لا يجدي الكثير من النفع ، لأنه إذا كنا سنؤكد على الادعاء كما يتوجب علينا بأن الإسلام كدين وحضارة يمتلك معنى أوسع من المعنيين المنسوبين إليه حالياً ، عندها يجب أن يكون باستطاعتنا أن نملأ الفراغ في الطريقة التي نتحدث بها عن الإسلام . بالكاد سيجد أولئك الذين يرغبون إما بالرد على مغالاة المعيار المضاد للإسلام وللعرب ، والذي يسود حالياً في وسائل الإعلام وفي خطاب المفكرين الليبراليين ، أو بتحاشي مثالية الإسلام (كي يتجنبوا الحديث عن عاطفيته) ، بالكاد سيجدون موقعاً يقفون فيه أو يتحركون ضمنه بحرية.

منذ نهاية القرن الثامن عشر على الأقل وحتى يومنا هذا ، ساد نمط التفكير الذي ربما ما يزال يسمى استشراقياً على ردود الأفعال الغربية الجديدة تجاه الإسلام ، والقاعدة العامة للتفكير الاستشراقي هي تقسيم جغرافي تخيلي للعالم إلى جزأين غير متساويين ، الأوسع و (المختلف) بينهما يدعى الشرق ، أما الآخر – ويسمّى أيضاً بـ : عالمنا– فيُدعى الغرب .

وتحدث مثل هذه التقسيمات عندما تلجأ إحدى الحضارات إلى التفكير بحضارة أخرى مختلفة عنها ، لكن من المثير للانتباه أنه حتى في الوقت الذي يُعتبر فيه الشرق وبشكلٍ دائمٍ جزءاً وضيعاً من العالم تُنسب إليه مساحات أكثر اتساعاً وإمكانيات أكبر للسيطرة من الغرب . وحتى هذه اللحظة بقدر ما أُعتبر الإسلام من خصوصيات الشرق ، نُظِر إلى مصيره الاستثنائي ضمن البنيان العام للاستشراق بعدائيةٍ و خشيةٍ خاصتين.

بالطبع هناك عدة أسبابٍ دينية ونفسية وسياسية وراء هذا الأمر، لكنها تنبع مجتمعة من الشعور العميق بالقلق لدى الغرب ، فلا يشكل الإسلام منافساً مرعباً للمسيحية فحسب ، بل تحدياً أحدث منها عهداً .

لم يكن بمقدوري العثور على فترة في التاريخ الأوربي والأميركي اللاحق للقرون الوسطى نوقش فيها الإسلام بشكلٍ عام خارج إطار الانفعال والتحامل والمصالح السياسية ، لا يبدو هذا اكتشافاً مدهشاً لكن التهمة تشمل سلسلةً كاملة من الفروع العلمية والدراسية ، التي منذ بدايات القرن التاسع عشر إما أطلقت على نفسها اسم الاستشراق ، أو حاولت أن تتعامل مع الإسلام بشكلٍ منتظم .

لن ينكر أحدٌ القول أن خطاب أول الشارحين عن الإسلام من أمثال بيتر المبجّل وبارثيلمي دي هيربيلوت اتسم بالجدال المسيحي الانفعالي العنيف ، لكن ثمة افتراض لم يُبحث بعد يقول أن أوروبا منذ تقدمت في العصر العلمي الحديث و تحرّرت من الخرافة والجهل كان لابد لمسيرتها أن تشمل الاستشراق. هل صحيح أن كلاً من سيلفستر دي ساسي ، إدوارد لين ، إرنست رينان ، هاميلتون جيب وليويس ماسينون كانوا علماء مثقفين موضوعيين ، هل صحيح أن من تتبع كل أنواع التقدم في علوم القرن العشرين ، علم الاجتماع وعلم الإنسان واللغويات والتاريخ ، العلماء الأمريكيين الذين درّسوا الشرق الأوسط والإسلام في جامعات مثل برينستون وهارفرد وشيكاغو ، هل هم لهذا منصفون وغير مضطرين لتبرير أعمالهم الخاصة؟ الجواب هو النفي.

ليس الاستشراق أكثر انحيازاً من العلماء الآخرين في علم الاجتماع والعلوم الإنسانية ، إنها فروع مؤدلجة أفسدها العلم كما أفسد فروعاً أخرى ، الفرق الرئيسي هو أن المستشرقين يستخدمون نفوذ مواقعهم كخبراء تجريبيين لينكروا — ولا ليحجبوا — مشاعرهم عميقة الجذور تجاه الإسلام بغطاءٍ من المصطلحات التي تهدف إلى توثيق "موضوعيتهم" و " نـزاهتهم العلمية " ؛ تلك هي القضية. بينما سيشكل الاتجاه الآخر نموذجاً تاريخياً في ما سيصبح عند اختلاف الوضع تصويراً غير مخالفٍ للاستشراق .

طوال العصر الحديث كان ثمة توتر سياسي شديد محسوس بين الغرب ومشرقه (أو بين الغرب وإسلامه) ، لم تكن هناك نـزعة للرجوع إلى العنف المباشر في الغرب ، بل في البداية إلى وسائل مستقلة نسبياً لتصوير علمي موضوعي ظاهرياً. وفي هذا المنحى يتم توضيح الإسلام بشكلٍ أكبر ، وتظهر للعيان الطبيعة الحقيقية للتهديد الذي يشكله ، ويُقترح منهج ضمني للتحرك ضده. في هذا السياق سينتهي كل من العلم والعنف المباشر بأن يصبحا شكلين من الافتئات على الإسلام .

سَيَفي هذان المثالان المذهلان بتوضيح هذا الطرح : يمكننا أن نعود بالذاكرة إلى ما حصل خلال القرن التاسع عشر عندما استبقت فرنسا وإنكلترا احتلالهما لأجزاء من الشرق الإسلامي بفترة تعرضت فيها الوسائل الثقافية المتنوعة في تصوير وفهم الشرق إلى تحديث وتطوير فنيين ملفتين. فقد سبق الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ۱۸۳۰ فترة بلغت قرابة عقدين من الزمن ، حوّل خلالها الدارسون الفرنسيون بكل ما تحمله الكلمة من معنى دراسة الشرق من فرع أثري إلى آخر عقلاني. وبالطبع كان هناك احتلال نابليون لمصر عام ۱۷۹۸ ، ولابد لنا أن ننوه إلى أنه أعد لحملته مهتدياً بمجموعة من العلماء ذوي الثقافة الرفيعة بغية تفعيلٍ أكبر لمشروعه . ما أريد قوله على كل حال أن احتلال نابليون قصير الأجل لمصر اختتم جزءاً ، ليبدأ جزءٌ جديدٌ مع الفترة التي — حينها كان دي ساسي يُشرف على المعاهد الفرنسية المتخصصة بدراسة الشرق- أصبحت فيها فرنسا قائد العالم في الاستشراق ، بلغ هذا الجزء ذروته بعد فترة وجيزة عندما احتلت الجيوش الفرنسية الجزائر عام ۱۸۳۰.

لست في وارد القول أن هناك علاقة اتفاقية بين الأمر الأول والآخر على الإطلاق ولا أريد أن أصادق على وجهة النظر المعادية للفكر التي تقول أن العلم يقود بالضرورة إلى العنف والمعاناة. كل ما أريد أن قوله هو أن تلك الإمبراطوريات لم تكن تزخر بالعفوية فطرياً كما أنها لم تقاد في العصر الحديث على نحو ارتجالي. فإذا كان تطور المعرفة يشمل إعادة التعريف والتكوين لشتى حقول الخبرات الإنسانية التي قام بها العلماء المتبحرون في موادهم الدرسية ، فلن تكون خارج نطاق البحث رؤيتنا لنفس التطور وهو يحصل بين السياسيين الذين أُعيد تعريف مملكة نفوذهم لتشمل أقاليم أدنى في العالم حيث من الممكن أن تُكتشف فيها مصالح وطنية ستحتاج لإشرافٍ مباشرٍ فيما بعد .

ينتابني شكٌ كبير في أن إنكلترا كانت ستحتل مصر تلك الفترة الطويلة من الزمن و بذلك الأسلوب شديد التنظيم ، لو لم تكن مدفوعة بالاستثمار القوي في المعرفة المشرقية ، التي كان علماء من أمثال لين و وليام جيمس أول من مهّد لها.

الألفة و إمكانية الوصول و قابلية التمثيل : هذا هو كل ما أظهره المستشرقون عن الشرق . لقد أصبح من الممكن فهم الشرق ودراسته و إدارته. لم يعد ضرورياً أن يبقى مكاناً بعيداً ، عجائبياً ، مبهماً وشديد الثراء ، من الممكن استيعابه .. أو ببساطة أكبر يمكن لأوربا أن تتصرف فيه و كأنها في بيتها ، كما حصل فيما بعد.

مثالي الآخر هو مثالٌ معاصر : تعود أهمية الشرق الإسلامي اليوم لثرواته الطبيعية أو لتأثير موقعه الجغرافي في السياسة. ولا يمكن في أي ظرف استبدال أيٍ من هذين العنصرين بمصالح وحاجات وطموحات المشرقيين الأصليين. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية احتلت الولايات المتحدة مواقع السيطرة والهيمنة التي احتلتها فرنسا وبريطانيا في العالم الإسلامي فيما سبق ، وقد ترافق ذلك التبادل بين نظامٍ استعماري وآخر بأمرين اثنين : الأول ازدهارٌ ملفتٌ لاهتمام أكاديمي وخبراتي بالإسلام ، والثاني ثورة هائلة في التقنيات المتاحة لصناعات صحافة القطاع الخاص المتعاظم والصحافة الإلكترونية ، وبكل ما في الكلمة من معنى فسَّرت هاتان الظاهرتان العالم الإسلامي للغرب ، فبالاستناد إليهما درس جهاز ضخم من الخبراء الجامعيين والحكوميين وخبراء الأعمال الإسلام والشرق الأوسط ، وبالاعتماد عليهما أيضاً أصبح الإسلام مادةً مألوفةً لجميع مستهلكي الأخبار في الغرب .

فقد غدا العالم الإسلامي مادةً للإشباع الغربي الثقافي والاقتصادي الأشد عمقاً في التاريخ .. إذ لم تهيمن الولايات المتحدة على أي عالم غير غربي كما يخضع العالم العربي الإسلامي اليوم للتعامل الأحادي الجانب بين الإسلام والغرب الذي تمثله الولايات المتحدة في هذه الحالة . وطالما تبدو الولايات المتحدة متورطة ، فهناك بعض المبالغة في القول أن المسلمين والعرب إما أن يكونوا موردين للنفط أو إرهابيين محتملين أدرك العاملون على نقل الأخبار عن العالم العربي جزءاً صغيراً من التفاصيل كالكثافة الإنسانية وعاطفية الحياة العربية الإسلامية ، لكن ما يصل إلينا هو سلسلة من الصور المشوهة غير المتقنة التي تُقدم على أنها ماهية العالم الإسلامي ، وبهذه الطريقة تجعله عرضةً للاعتداء العسكري ، لذلك لا أعتقد أنه محض صدفة أن تسبق ذلك الحديث السائد مؤخراً عن التدخل العسكري الأمريكي في الخليج العربي (الذي بدأ قبل خمس سنوات على الأقل ، أي قبل فترة كبيرة من الغزو السوفيتي لأفغانستان) فترة من التقديم المنطقي للإسلام من خلال بث البرامج التلفزيونية المعتدلة والدراسة الاستشراقية "الموضوعية": في عدة اتجاهات يحتوي واقعنا اليوم شبهاً فاتراً بالمثالين البريطاني والفرنسي في القرن التاسع عشر ، والذين سبق لنا ذكرهما. حتى إن لم يحصل الاعتداء العسكري ، فإن تلك المضامين بعيدة المدى ، كما أسلفنا الذكر بدا الإسلام كتهديدٍ دائمٍ لأوربا وللغرب بشكلٍ عام . وقد تم برهان هذه الظاهرة في يومنا هذا أكثر من أي فترة مضت ، فمن جهة لأن هناك التقاءً إعلامياً متزايداً حول ما دُعي مؤخراً

الانبثاق ، عودة أو انبعاث الإسلام ، ومن جهة أخرى لأن أجزاء من العالم الإسلامي فلسطين ، إيران ، أفغانستان وغيرها من البلدان .. كانت تمر في تطورات تاريخية متنوعة وغير متماثلة ، فبدت أنها تتخطى حدود السيطرة الغربية (وبشكل خاص الأميركية) التقليدية ، يتطابق في هذا وجهات النظر السائدة بين الخبراء وفي وسائل الإعلام ، وقد أكد الوسط السياسي والفكري في الولايات المتحدة الصورة الفظة للإسلام كتهديد وعززها دونما محاولة للتنقيح أو المعارضة، منذ رؤية زبغيني بريجنسكي في « إسلام الأزمة » وإلى « عودة الإسلام لبرنارد ليويس إن الصورة المرسومة هي صورة اجتماعية ، فـ"الإسلام" يعني نهاية الحضارة كما نعرفها "نحن" ، الإسلام مضاد للإنسان ، للديمقراطية ، للسامية ومضاد للعقلانية ، وإما أن الدارسين الجامعيين الذين ترتبط حياتهم العملية بدراسة الإسلام رغبوا بالاشتراك بصياغة الأمور ، أو أنهم إذا التزموا الصمت سيثبت تهميشهم في الثقافة إلى حد كبير الحقيقة القائلة أنه ليس في الولايات المتحدة على الأقل قسماً سياسياً رئيسياً أو قطاعاً ثقافياً هاماً أو بالأحرى ليس هناك في مجتمعٍ كاملٍ جزءاً قادراً على دراسة هوية العالم الإسلامي دونما نفور.

من جهة أخرى ، يُغمر العالم الثالث بشكلٍ كامل بالبرامج التلفزيونية المنتجة في الولايات المتحدة ، ويعتمد كلياً على مجموعة صغيرة من وكالات الأنباء التي تعيد بث أنبائها له ، وبهذا تحول العالم الثالث عموماً والبلدان الإسلامية بشكل خاص من مصدر للأنباء إلى مستهلك لها، ولأول مرة في التاريخ (لأول مرة أي إلى هذا الحد) ينطبق على العالم الإسلامي القول بأنه يتعلّم عن نفسه إلى حدٍّ ما عن طريق الصور والروايات والمعلومات المصنعة في الغرب.

إذا أضاف المرء حقيقة أن الطلاب والدارسين في العالم الإسلامي ما زالوا يعتمدون على المكتبات ومؤسسات التعليم الأميركية والأوربية فيما يتم تداوله حالياً كدراسات شرق أوسطية (فلنتأمل مثلاً أنه ليس هناك في كامل العالم الإسلامي مكتبة واحدة من الدرجة الأولى بمادة عربية صالحة للاستخدام) ، وحقيقة أن اللغة الإنكليزية –على عكس العربية– هي لغة عالمية ، وحقيقة أن العالم الإسلامي قد أنتج كنخبة له طبقة إدارية تتكون بشكل أساسي من تابعين محليين يدينون بنظمهم الاقتصادية وقوانين دفاعهم وأفكارهم السياسية لنظام السوق الاستهلاكي الواسع الانتشار والذي يحكمه الغرب...عندها سيحصل المرء على صورة دقيقة وإن كانت محزنة لما فعلته الثورة الإعلامية (بخدمتها لقطاع المجتمعات التي أنتجتها) للإسلام .

إن تلك الدرجة من المعرفة عن الإسلام اليوم ، قد تحققت بشكلٍ رئيسي نتيجة للصورة التي أعطاها له الإنتاج الإعلامي الضخم ليس فقط على صعيد الإذاعة و السينما والتلفزيون ، بل أيضاً في الكتب المدرسية والمجلات والروايات رفيعة المستوى التي حققت أفضل المبيعات.هذه الصورة المشتركة للإسلام محزنة ومضللة بمجملها ، والذي يبرز في الطليعة هو أن آية الله الخميني والعقيد معمر القذافي والشيخ أحمد زكي يماني والإرهابيين الفلسطينيين هم الرموز الأكثر شهرة ، أما الخلفية فمسكونة بظلٍ (مع أنه مرعب للحد الأقصى) من الأفكار الغامضة عن الجهاد ، الاستعباد ، دونية المرأة والعنف اللاعقلاني المتّحد مع انحلال متطرف.

إذا ما طلبت من مثقف غربيٍ معتدل أن يعطيك اسم كاتب أو موسيقي أو مفكر عربي أو إسلامي ، ربما سيكون جوابه جبران خليل جبران ، ولا أحد غيره ، بكلمات أخرى لن نجد مختلف النماذج من التاريخ والثقافة والمجتمع الإسلامي إلا في مجموعة مقتضبة من الصور التي صنفتها وسائل الإعلام ، وكما قال هربرت شيللر: يميل البث التلفزيوني إلى تقديم صورة مباشرة جداً و متشظية عن الواقع لإظهار التواصل الإنساني أو التاريخي بهذا الشكل ، لذلك يقابل الإسلام مجموعة من الرعاع الذين يلوحون بسيوفهم ويمتلكون النفط ، أو أنه يُختصر إلى تصريحات أحد القادة الإسلاميين الذي تصادف أن يكون كبش فداء أجنبي مناسب في زمن ما.

لسنا نحاول أن نلوم وسائل الإعلام أو الخبراء أو الحكومة أو ذلك العدد الكبير من القراء لهذا الطرح للمسائل ، ومع استثناءات قليلة جداً يُصعق المرء بذلك الاتساق الأعمى للصورة ، ربما كان صحيحاً أن تلك الصورة وكل ما يمسه الخبراء و مجموعات المصالح الخاصة والمعالجون يحولونه إلى السطحية والجهل والقوالب الجاهزة ، لكن علينا أن ننتبه فيما إذا كان الإسلام يُعرض على التلفزيون أو يُشرَح في الكتب المدرسية أو أنه يظهر في الروايات التي تحقق أعلى المبيعات والتي يكتبها رواة رفيعو المستوى ، أو إذا كان أحد الخبراء الأكاديميين المتخصصين (الذين ما زالوا يحوزون بعض الاحترام في العالم العربي) يناقشه بأسلوب علمي ، ستكون الصورة في هذه الحالة مطابقة تماماً ، لا يعني هذا أنها ليست دقيقة ، إنها صورة إلى حد ما و فيها تناغمٌ بين أشياء جُمعت لكن ليس من الحياة ، إنها تصور جوانب معينة مما أسماه المارشال هودجز (العالم المؤسلم) ، لكنها تمسخها إلى أسلوب يعبر عن نواحي محددة لدى وسائل الإعلام وعن القليل جداً مما يُشار إليه بالإسلام ، وما هو هامٌ وحاسمٌ في هذا

التقديم للإسلام هو هيمنة وسائل الإعلام وسيطرة مفكريها - المدركة حسياً - على كامل الأمر ، و بما أن تلك الوسائل تبيع إنتاجها للمستهلكين الذين يفضلون البساطة على التعقيد ، ستبرز صورة الإسلام المتناغمة التي رُسمت بنفس الأدوات التي تم بواسطتها إزالة التاريخ والمجتمع والإنسانية .

ماذا يمكننا أن نفعل ؟ بدايةً يجب أن نتجنب أية محاولة لتغيير أو تحسين أو تجميل أو إضفاء مزيد من الفتنة على صورة الإسلام ، و إلا وقعنا في فخ التصديق بأنه من الممكن لتلك الصورة المنقوصة أن تنوب عن واقع شديد التعقيد ، وسينتهي بنا المطاف إلى تثبيت منظومة كاملة من الخيالات الأيديولوجية التي سُخِّر الإسلام من خلالها لخدمة مخططات الغرب تجاه الثروات والشعوب والأقاليم التي تصادف أنها تدعو نفسها إسلامية ، يجب أن نجتهد في خلق تمييز عاجل بين دراسة جادة للعالم المؤسلم من جهة وبين كل ما يحتل مكان الإسلام لدى وسائل الإعلام ومعظم المواقع الثقافية من جهة أخرى .

لا يمكن للمرء أن يتطلع إلى تعزيز دراسة استقصائية جادة للإسلام - حتى كموضوع للتحري الأكاديمي - بين المستشرقين التقليديين أو من خلال البرامج المتوسطة المنشأة للدراسات الشرق أوسطية في الجامعات الغربية الحالية .

من جهة أخرى سيفيد الطلاب والدارسون الشبان بشكلٍ كبير في القيام بعملٍ بعيدٍ عن التحيز والعوائق التي لدى الكبار سناً ، هناك أمرٌ هامٌ أيضاً .. لن يتطور اهتمامٌ جادٌ في مشكلات المجتمع والشعوب الإسلامية بين خبراء الشرق الأوسط أو بين وسائل الإعلام الضخمة التي تمتلك تفاصيل مزعومة عن الإسلام الحديث ، إنما على الأرجح سيحصل هذا داخل القطاعات الشعبية التي تمتلك نظرةً أوسع وأكثر جدية إلى المشاكل الإنسانية بشكلٍ عام : رجالٌ ونساءٌ لا يلتزمون بالشرق أو بالغرب بل بفكرة حقوق الإنسان ، وليس أعضاء مجموعات الضغط الذين يتحركون لصالح تلك الحقوق عندما ينالون أجرهم على هذا ، طلاب الأدب المقارن وليس علماء فقه اللغات السامية الذين لا يعلمون شيئاً عن الآداب الأخرى ولا يُبدون الكثير من الاهتمام بالعالم المعاصر ، علماء الاجتماع الحقيقيون الملتزمون الذين يعلمون شيئاً عن الجوانب النظرية يهتمون كثيراً بالمسائل التي تواجه المجتمعات الواقعية ، وليس الاختصاصيون في دراسة العقلية الإسلامية أو ذلك الشيء المتناغم الذي يُدعى المجتمع الإسلامي. مهما كانت هوية الشخص الذي يقوم بالمحاولة ومهما كان الحقل الذي

تتم فيه ، أشك بأن هناك بديلاً لموقف منجز بأصالة وتجانس- معارضٍ للموقف العدائي والسياسي الضيق – مع العالم الإسلامي. يخامرني إحساسٌ أننا إذا ما تجاوزنا تلك التصنيفات المُسيَّسة كـ : "الشرق" و "الغرب" ، سنبلغ عندها العالم الحقيقي .

أما بالنسبة لما يمكن للعالم الإسلامي وبشكلٍ خاص العربي الإسلامي أن يفعله ، فمن الممكن تحديده ببساطة ، لم يعد هناك عذر لندب عدائية الغرب تجاه العرب والإسلام ، ومن ثم الاسترخاء دونما عمل للرد على الأخلاقيات المُهانة ، عندما تُحلَّل الأسباب التي تقبع وراء هذه العدائية ، وتحلل تلك النواحي من "الغرب" التي تحفزها ، ستكون تلك خطوة هامة باتجاه محاربتها ، لكنها ليست نهاية الطريق على الإطلاق .

بالتأكيد هناك مخاطر كبيرة في وقتنا الحاضر تتمثل بالسعي وراء تلك الصورة العدائية للإسلام وإيجاد مبررٍ فعليٍ لها .. وينفرد في هذا الصنيع حقيقةً بعض المسلمين و العرب وبعض الأفارقة السود ، وتؤكد هذه الأعمال على أهمية ما يتوجب علينا القيام به .في غمرة اندفاعه للتصنيع والتحديث والتطوير كان العالم الإسلامي مطواعاً في تحويل نفسه إلى سوق كبيرة للمستهلكين ، ولتبديد أساطير الاستشراق وقوالبه الجاهزة يجب أن ينال العالم بأكمله الفرصة أن يرى المسلمين يقدمون شكلاً مختلفاً للتاريخ ، نوعاً جديداً من علم الاجتماع ، وعياً حضارياً حديثاً : باختصار أن ينشدوا الغاية البسيطة نسبياً لكتابة صورة جديدة للتاريخ ، باحثين في العالم الإسلامي ومجتمعاته المختلفة العديدة بنيّةٍ جادة وأصيلة والتزامٍ خالصٍ بالحقيقة ، لكن للأسف علينا الإقرار بأنه حتى مع كل تلك الأموال الضخمة المتاحة بسهولة ، لا يبدو أن العالم الإسلامي برمته مهتماً بتعزيز التعلُّم وبناء المكتبات وتأسيس معاهد البحث التي ترمي بشكلٍ رئيسي إلى إيلاء اهتمامٍ علميٍ حديثٍ بالواقع الإسلامي ، وإلى البحث عن الخاصيات الإسلامية الحقيقية في العالم الإسلامي.

لماذا هذا الاندفاع لمراكمة تلك الصفوف من الاختصاصيين الجاهلين وظيفياً.. إذ أن كل جيل جديد هو أكثر عرضة من أسلافه لأسوأ إسرافات الثورة الإعلامية ؟ إنه السؤال المهم في هذه الساعة ، وإذا كان أمراً واقعاً أنه اتجاه عام تتبناه بلدان العالم الثالث التي استقلت حديثاً ، فليس من العزاء في شيء أن نقول بثقة أن المشكلة ليست إسلامية وإنما اجتماعية وحضارية ، ولن يكون الهجوم البلاغي على الاستعمار الجديد مقنعاً في ذات الوقت الذي يناصر فيه الحكام والحكومات الوطنية علانيةً القيم التي تعزز النمط الجديد من الاستعمار غير المباشر ، إن القول بأن هذا يعكس انشغالاً

كاملاً بالبلاغة والأسلوب على حساب الجوهر الواقعي ، يعني أننا لم نتعلم شيئاً مما ندعوه تشويه الصورة العربية والإسلامية في وسائل الإعلام الغربية ، ولم يحصل هذا التشويه إلا كوسيلة من وظائف السلطة ، في هذا الاتجاه يشكل الأسلوب والصورة معاً دلالة مباشرة للسلطة ، بهذا يجب علينا أن نقر بأن محاولة قاسية لتصحيح التشويهات التي يتعرض لها الإسلام والعرب هي مسألة سياسية تتضمن استخدام وبسط السلطة .

دعني أعود إلى سلطة وسائل الإعلام في الوضع الراهن ومن ضمنه الإسلام : في الوقت الذي أصبحت فيه الصحافة ترى في ذلك العدد المتزايد من المسلمين أعداءً لأميركا ، يُصوَّر حكامٌ مثل الرئيس المصري أنور السادات (الذي كُرِّر تعليقه أن الخميني مجنون وعارٌ على الإسلام إلى حد يبعث على الغثيان) على أنهم رموز إسلامية تحقق تقبلاً أكبر لدى الغرب وينطبق هذا على العائلة المالكة في السعودية ، على الرغم من أن النتيجة بشكلٍ عام تكون عدداً من الحقائق المزعجة التي لا تذكرها الأنباء ، وفي حالة إيران يعمق هذا من أزمة الرهائن.

منذ اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ أجمعت الآراء على أن السادات هو "صديقنا في المنطقة" ، فقد أعلن جنباً إلى جنب مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن عن رغبته بأن يصبح شرطياً إقليمياً وأن يقدم قواعد للولايات المتحدة على أراضي دولته ، نتيجة لذلك فإن كل ما تورده الأنباء عن مصر يصور وبشكل مؤثر وجهات نظره وكأنها سليمة في شتى المسائل سواءً على الصعيد المصري أو العربي أو الإقليمي.

غالباً ما ترد الأنباء عن مصر والعالم العربي بالشكل الذي يرسخ شهرة السادات ، ولا يُعرض إلا القليل عن المعارضة الواسعة له ، وهذا بالضبط ما حصل خلال النظام البهلوي ، عندما لم يُعرْ أحدٌ أدنى انتباه – باستثناء حالة حميد ألغار – إلى قوة المعارضة الدينية والسياسية للشاه. إن العديد من توظيفاتنا السياسية والعسكرية والاقتصادية والاستراتيجية تُحدَّد من خلال السادات وبناءً على فعالية نظرته للأمور .

هناك أسباب أخرى أيضاً ، أحدها هو أهمية النواحي الداخلية الحساسة في الشرق الأوسط بالنسبة لهذا البلد ، فليس صدفة على سبيل المثال أنه حتى بعد ووترغيت وبعد ما حصل من إفشاءٍ للأسرار المتعلقة بوكالة الاستخبارات المركزية (وحتى مع قانون حرية المعلومات) لم تُكشف نشاطات أميركية رئيسية في الشرق الأوسط ويبدو هذا

مدهشاً في حالة إيران ، ليس السبب ببساطة أن العديد من الأميركيين كانوا منتفعين من الشاه فحسب ، بل أيضاً بسبب ضلوع إسرائيل المباشر والكبير أثناء نظام الشاه السابق، فقد أُسس السافاك[1] بعونٍ مباشر من وكالة الاستخبارات الإسرائيلية الموساد ، وكما في العديد من القضايا الأخرى تعاونت وكالة الاستخبارات المركزية ودائرة التحقيقات الفيدرالية مع الاستخبارات الإسرائيلية عن طيب خاطر ، بالإضافة إلى ما ذكرنا إن في هذا البلد مجموعة ضغط جديدة ذات نفوذ متعاظم تعمل بشكلٍ رئيسي على التأكيد للرأي العام الأمريكي أن الأنظمة العربية الحالية في الخليج هي أنظمة مستقرة.

وفي الواقع أن وحده إيد برادلي مراسل الـ **CBS** بين كل مراسلي الصحف وشبكات التلفزة الذي نوّه في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٧٩ أن المعلومات الواردة عن احتلال الجامع الكبير في مكة في نفس الشهر كانت من مصدرٍ حكومي ، بينما لم يُفسح المجال لمصدرٍ آخر ، فيما بعد ذكرت هيلينا كوبان مراسلة صحيفة ذا كريستيان ساينس مونيتور في بيروت في ٣٠ تشرين الثاني أن عملية احتلال الجامع تضمنت غرضاً سياسياً محدداً بعيداً عن مطالب المتعصبين الإسلاميين ، كان المهاجمون جزءاً من شبكة سياسية تمتلك برنامجاً مدنياً وإسلامياً موجهاً بشكلٍ مباشرٍ إلى احتكار العائلة السعودية المالكة السياسي والمالي ، وبعد مضي شهر من ظهور المقالة اُختطف الناطق السعودي باسم الصحيفة من أحد شوارع بيروت ، علماً بأنه هو من أعطى القصة لكوبان ، وكانت الاستخبارات السعودية وراء الاختطاف كما وردت الأنباء .

مع الاجتياح السوفييتي لأفغانستان ، ربما سنلحظ شقاً مفاجئاً يفصل المسلمين الطيّبين عن الأشرار ، ومما لا شك فيه سنشاهد الكثير من الأنباء التي تهلّل لإنجازات المسلمين الطيبين مثل أنور السادات ، وضياء الحق في الباكستان ، والثوار الأفغان.. المزيد من المساواة بين الإسلام الجيد من جهة والتضاد مع الشيوعية من جهة أخرى ، وربما بين الإسلام والتحديث ، أما بالنسبة للمسلمين الذين لا يخدمون أغراضنا ، فسيُصوَّرون – كما يصوَّرون دائماً – كمتعصبين رجعيين.

١- السافاك : جهاز الأمن السياسي الإيراني أثناء فترة حكم الشاه.

النظرية الشيطانية المحيطة بالإسلام

من الواضح أن جوديث ميللر ، و هي مراسلة صحفية في جريدة "نيويورك تايمز" تلقي المحاضرات و تعقد الندوات ذات المواضيع المتعلّقة بالشرق الأوسط ، و سلعتها هي "التهديد الإسلامي" ، إذ أن رسالتها كانت و ما زالت تتمثّل في الإعلاء من شأن الفكرة التي بدأت منذ ألف عام و التي تفيد في أن الإسلام المقاتل يشكّل خطراً موجهاً ضدّ الغرب . لقد اطمأن الباحثون عن شيطانٍ أجنبي يحلّ محلّ الشيطان السوفييتي ، فبالنسبة للإسلام كانت أوربا النصرانية في القرن الثامن تنظر له كدينٍ جعله قربه الطبيعي و تحدّيه المستمر للغرب يبدو بمظهر الشيطان العنيف ، كذلك هي الحال في الوقت الراهن ، فليس هناك اعتبارٌ لواقع الفقر الذي تُبتلى به البلدان الإسلامية التي تعيش حالةً من الاستبداد و قلّة الكفاءة العسكرية و العلمية مما يمنعها أن تهدّد أحداً إلا أبناءها ، كما أن من يرى في الإسلام خطراً يسقط من حسابه أن البلدان الإسلامية التي تتمتّع بالنفوذ - كالسعودية و مصر و الأردن و الباكستان - إنما تدور في فلك الولايات المتحدة ، فما يعني "خبراء" من أمثال ميللر ، صموئيل هانتنغتون ، مارتن كرامر ، برنارد ليويس ، دانييل بايبس ، ستيفن إيمرسن و باري روبن بالإضافة إلى مجموعةٍ مترابطة من الأكاديميين الإسرائيليين هو أن يُبقوا "التهديد" نصب أعيننا ، و أن يشجبوا الإسلام لإرهابه و طغيانه و عنفه ، بينما يضمنون لأنفسهم الاستشارات المربحة و الظهور المتكرّر على شاشات التلفزة ، و يؤمنون عقد الاتفاقيات لبيع كتبهم.

يجري تصوير التهديد الإسلامي ليبدو مخيفاً على نحوٍ منافٍ للواقع و يقدّم هذا التصوير الدعم للفكرة (التي تجاري بارانويا معاداة الساميّة بشكلٍ لافت) التي تشير إلى أن مؤامرةً على مستوى العالم تقبع خلف أي انفجار .

بشكلٍ عام فشل الإسلام السياسي في كل مرةٍ حاول أن يعتلي سدّة الحكم في أحد البلدان ، و يمكننا أن نعتبر إيران استثناءً ، أما في السودان البلد الإسلامية سلفاً و الجزائر التي مزّقها الصراع بين الجماعات الإسلامية و بين المؤسسة العسكرية المتوحشة فلم ينجح إلا في زيادة إفقار البلدين و تهميشهما على المسرح الدولي . لكن ثمة مقدار من الحقيقة يستتر في الحديث عن الخطر الإسلامي في الغرب ألا و هو أن تلك الاتهامات أدّت إلى تغذية مقاومة المسلمين (بالأسلوب الذي دعاه إريك هوبسبون ثورة بدائية وما قبل صناعيّة) للتحالف الأميركي الإسرائيلي في شتّى أنحاء

الشرق الأوسط ، و مع ذلك لم يشكّل كل من حزب الله و حماس عائقاً حقيقيّاً في وجه القوة الساحقة المتنامية لعملية السلام .

يعيش معظم المسلمين العرب اليوم حياةً من الإحباط و الإذلال ، يثبط هممهم المجهول و قلّة الكفاءة و النضوج لدى الأنظمة الدكتاتورية التي تحكمهم ، لذلك هم لا يستطيعون تقديم الدعم لما يمكن أن تكون حملة إسلامية واسعة ضدّ الغرب أضف إلى ذلك أن أغلبية النخب تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الأنظمة الحاكمة كما تساند القوانين المادية و الإجراءات الخارجة عن نطاق القانون التي يتم فرضها ضدّ "المتطرفين" ، لماذا إذن تسود لهجات التحذير و الخوف معظم النقاشات التي تتناول الإسلام ؟ طبعاً لقد حدثت تفجيرات انتحارية و أعمال إرهابية شنيعة ، لكن ما الذي حققته تلك الأعمال سوى أنها قوّت ذراع إسرائيل و الولايات المتحدة و الأنظمة التابعة لها في العالم الإسلامي ؟

الجواب كما أعتقد هو أن تلك الكتب ككتاب ميللر هي كتبٌ اتفاقية ، إذ يجري استخدامها سلاحاً لتهميش و إخضاع و إلحاق الهزيمة بأية مقاومة عربية أو إسلامية للهيمنة الأميركية الإسرائيلية ، بالإضافة إلى ذلك إن الحملة المضادة للإسلام حيث تبرز ضمنياً السياسات العنيدة ذات الهدف الأحادي ، و التي تربط بين الإسلام و بين الجزء الهام استراتيجياً من العالم أي الجزء الغني بالبترول تقضي بهذا و بشكلٍ عملي على إمكانية قيام حوارٍ متكافئ بين الإسلام و العرب من جهة و الغرب أو إسرائيل من جهة أخرى كما أن شيطنة حضارةٍ كاملة و حيونتها على أرضية أنها (على حد تعبيرٍ لبويس الساحر) تشعر بالسخط إزاء الحداثة ستؤدّي إلى تحويل المسلمين إلى أهداف لعناية علاجية و تأديبية ، لا أودّ أن يُساء فهمي هنا .. إذ أن معالجة الإسلام - و على نفس الأساس المسيحية و اليهودية - لخدمة أغراضٍ سياسية عكسية هي أمرٌ سيءٌ للغاية من واجبنا معارضته ، ليس فقط في السعودية و الضفة الغربية و غزة و الباكستان و السودان و الجزائر و تونس ، و لكن في إسرائيل ، و بين أبناء اليمين المسيحي في لبنان (الذين تظهر ميللر نحوهم تعاطفاً ليس في مكانه) و في أي مكانٍ يصبح فيه الدين مسيّساً أيضاً .

لست أؤمن أننا يمكن أن نعزو جميع العلل التي تعاني منها البلدان الإسلامية إلى الصهيونية و الإمبريالية على الإطلاق لكن هذا لا يعني أبداً أن إسرائيل و الولايات المتحدة و مدفعياتهما الفكرية لم تلعب دوراً قتالياً لاهباً في تشويه تعبير مجرّد اسمه "الإسلام" و تكديس أشكالٍ من إساءة الاستخدام البغيضة له ، و ذلك بشكلٍ متعمّدٍ

لإثارة مشاعر الغضب و الخوف من الإسلام بين الأميركيين و الأوربيين ، الذين تُفرض عليهم رؤية إسرائيل كبديلٍ متمدن ليبرالي . تتملّص ميللر في مستهل كتابها إذ تقول أن اليمين اليهودي سيكون "موضوعاً لكتاب آخر" ، رغم أنه ينبغي أن يكون جزءاً أساسياً من الكتاب الذي أنجزته في الواقع ، إلا إذا كانت تريد إبقاء المسألة طي الكتمان بغية تعقّب "الإسلام" .

لو كان ما كتبته ميللر يتناول جزءاً آخر من العالم ، كانت ستُعتبر غير مؤهلة بشكلٍ كارثي ، إنها تخبرنا بأن علاقتها بالشرق الأوسط تعود إلى خمسٍ وعشرين سنة و رغم ذلك ليس لديها إلا دراية ضئيلة بالعربية أو بالفارسية . من رابع المستحيلات أن تُؤخذ على محمل الجد كمراسلة أو خبيرة في الشؤون الروسية ، أو الفرنسية أو الألمانية ، أو الأميركية اللاتينية أو حتى الصينية أو اليابانية ، بدون معرفة عن اللغات الأساسية ، أما فيما يتعلّق بـ "الإسلام" فالمعرفة اللغوية ليست ضرورية ، طالما أن ما يتعامل معه المرء يُنظر إليه كتشوهٍ نفسيٍ و ليس كحضارةٍ أو دينٍ "حقيقيين" .

ماذا عن معلوماتها السياسية و التاريخية ؟ يبدأ كل فصلٍ من الفصول العشرة التي تتحدّث فيها عن عدة بلدان (مصر و السعودية و السودان) بإحدى القصص ، لينتقل مباشرة إلى تاريخٍ معلّب فلا يعدو عملها أن يكون نتاجاً لطالبٍ جامعيٍ يحاول التأثير و جذب الانتباه من خلال تكراره للأسماء المعروفة .

إنها تبني أفكارها بالاعتماد على مراجعٍ شتى غير موثوقة (لقد لطّخت الصفحات التي خصّصتها للحواشي بجهلها ، إما لأنها تستطيع أن تذكر المراجع الإنكليزية التي تعرفها و تريدها فقط ، أو لأنها تستشهد بتلك التي تطابق وجهة نظرها ، و هي بهذا تنحي جانباً مكتبةً كاملةً من كتب المفكرين المسلمين و العرب و الباحثين من غير المستشرقين .) و قد سعت في تأريخها إلى استعراض تمكنها في المادة التي بين يديها ، لكنها لم تنجح في الواقع إلا في كشف نواحي فشلها و تحاملها- الجديرين بالرثاء - في أسلوب فهمها .

على سبيل المثال تخبرنا ميللر في الفصل الذي يتحدّث عن السعودية أن المصدر "المفصّل" لديها في ما يخص النبي محمد هو المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون ، و هو باحثٌ ماركسي وقور ألّف في كتابته سيرة النبي بين التهكم المعادي لرجال الدين من جهة و بين المعرفة الموسوعية من جهةٍ أخرى ، و ما خلصت إليه ميللر من كل هذا و هي تلخّص حياة و أفكار النبي محمدٍ ، هو أن هناك شيئاً فطرياً مضحكاً - إن لم يكن جديراً بالازدراء - في رجلٍ قال عنه رودنسون أنه جمع بين شارلمان و يسوع

المسيح ، و بينما يعي رودنسون فحوى هذا الكلام ، إلا أن ميللر تخبرنا (في منأى عن هذا الموضوع) أنها ليست مقتنعة به ، فالنبي محمد بالنسبة لها هو من أوجد ديناً معادياً لليهودية و مفعماً بالعنف و بجنون الاضطهاد .

لا تستشهد ميللر بأي مرجعٍ مسلمٍ مباشرٍ في كتابتها عن النبي محمد ، تخيلوا كتاباً يُنشر في الولايات المتحدة عن المسيح أو موسى دون أن يلجأ مؤلفه إلى مرجعٍ مسيحيٍ أو يهوديٍ واحد !

لا يقوم كتاب ميللر في معظمه على الحجة و الأفكار ، بل على سلسلة لا تنتهي من المقابلات تجريها مع عددٍ كبيرٍ من الأشخاص ، الذين يبدو أنهم أوغادٌ مثيرون للشفقة عاجزون عن الإقناع ، شخصيون في أفكارهم و في نقدهم الذي لا حدّ له بمجرّد أن نتجاوز تلك المحاولات التأريخية المقتضبة ، سنجد أنفسنا هائمين تائهين في قراءة أفكارٍ مملّة غير منتظمة ، و سأقدّم هنا جملةً تمثّل نموذجاً لإطلاق أحكامٍ عامة واهية : "السوريّون الواعون لتاريخ بلادهم المشوّش" (هل يوجد بلدٌ لا ينطبق عليه هذا بحقّ اللّه ؟) "اكتشفوا إمكانية الرجعة إلى الفوضى السياسية ، أو إلى عهدٍ جديدٍ مديد من الصراع الدموي على السلطة" (و هل ينطبق هذا فقط على سورية كبلدٍ كانت ترزح تحت الاستعمار المباشر ؟ أو أنه يشمل المئات من البلدان الأخرى في آسيا و أفريقيا و أميركا اللاتينية أيضاً ؟) "و ربما إلى انتصار الإسلام المقاتل في أكثر البلدان العربية تمدّناً" (أي ميزانٍ للحرارة استخدمته في قراءتها هذه ؟) إذا ما أهملنا هذا البيان الخطابي التافه و تلك الترّهات الفارغة ، ماذا سنجد عندها ؟ لن يكون هناك فكرةٌ مطلقاً إنما سلسلةٌ من الصيغ المبتذلة و التوكيدات الوهمية الكاذبة التي لا تعبّر عمّا "يجول في خواطر السوريين" بقدر ما تعبر عن أفكار ميللر نفسها . إنها تحاول إضفاء رونقٍ على بحثها التصويري الضعيف باستخدامها لعبارة "صديقي" محاولةً إقناع قرائها بأنها تعرف الأشخاص ، و بالتالي أنها تدرك ما تتكلّم عنه تماماً ، و قد أحصيت ٢٤٧ استخداماً لتلك العبارة حتى منتصف الكتاب حيث توقّفت عن القراءة ، و تقود هذه الطريقة إلى العديد من التشويهات الهائلة التي تُقدّم في أشكالٍ من الاستطراد و الإسهاب يتم من خلالها التعبير عن عقليةٍ إسلامية ، حتى و إن كانت تخفي ما هو أكثر أو على الأقل تخفي جوانب مادية وثيقة الصلة بموضوع الكتاب كالسياسة المحلية و فعالية المؤسسات المدنية ، و الخلاف الفكري القائم بين الإسلاميين و بين خصومهم القوميين ، يبدو أن ميللر لم تسمع بأركون أو بالجابري أو بالطرابيشي أو أدونيس أو حنفي الذين تنتشر أفكارهم في حلبات النقاش الحار في شتى أنحاء العالم الإسلامي .

يتضح فشلها الذريع في التحليل في الفصل المتعلّق بإسرائيل على وجه الخصوص (ثمة خطأ في عنوان هذا الفصل طالما أنه يتحدّث عن فلسطين) حيث تجاهلت التغييرات التي أحدثتها الانتفاضة و الأثر العميق للاحتلال الإسرائيلي ذي العقود الثلاثة و هي لا تنقل أياً من الأحاسيس البغيضة التي يعيش معها الفلسطينيون العاديون نتيجةً لاتفاقات أوسلو و لحكم ياسر عرفات الفردي .

رغم أن اهتمام ميللر منصبٌّ على حركة حماس ، لكنها من الواضح أنها غير قادرة على قراءة وجود الحركة ضمن الوضع المأساوي في الأراضي التي أدارتها إسرائيل بوحشية خلال هذه السنين لم تذكر أبداً – على سبيل المثال – أن الجامعة الفلسطينية الوحيدة هي جامعة غزة الإسلامية (حماس) ، التي تم تأسيسها بتمويلٍ غير فلسطيني ، و التي أنشأتها إسرائيل سعياً وراء تقويض منظمة التحرير الفلسطينية في فترة الانتفاضة لقد أشارت إلى غزوات النبي محمد ضدّ اليهود ، لكنها لم تذكر الكثير عن المعتقدات الإسرائيلية و عن البيانات و القوانين الموجهة ضدّ "غير اليهود" ، و عن ممارسات التهجير للأجانب التي غالباً ما أقرها الحاخامات اليهود لم تتكلّم عن القتل و عن تدمير المنازل و مصادرة الأراضي و ضمّها لم تذكر الكثير عن الإعاقة المنظمة للاقتصاد التي تحدّثت عنها سارة روي ، فإن كانت ميللر تتحدّث لماماً عن بعض تلك الحقائق ، لكنها لا تعطيها وزناً ولا تأثيراً كأسبابٍ لعاطفة المسلمين و غضبهم الذي لا يرقى شكٌّ إلى حقيقة وجوده .

تبلغنا ميللر عن المذهب الديني لكل من تذكره بشكلٍ يثير الغضب ، فهذا مسيحي و هذا مسلم سنّي و ذلك مسلم شيعي ...إلخ ، و مع ذلك لم تستطع أن تتوخى الدقة في كل مرة إنما نجحت في إضحاكنا إزاء بضعة من أخطائها البلهاء ، لقد تحدّثت عن هشام شرابي كصديقٍ لها لكنها أخطأت في تحديدٍ مذهبه الديني عندما عرّفته كمسيحي ، بينما هو في الواقع مسلمٌ سنّي ، أما بدر الحاج فأشارت إلى أنه مسلم و هو مسيحي ماروني في الحقيقة ، ما كانت تلك الهفوات بهذا السوء لو أن ميللر لم تعكف على إظهار صداقتها الحميمة للعديد العديد من الناس . هناك أمرٌ آخر و هو أنها التزمت بعدم التنويه عن خلفيتها الدينية أو نزعتها السياسية ، هل يُفترض بنا أن نعتقد أن لا صلة لدينها (الذي لا أظنه الإسلام و لا الهندوسية) بالموضوع ؟

إنها مع ذلك تكاد تصل بنا حدّاً مربكاً في ردود أفعالها تجاه الناس و السلطات و بعض الأحداث ، فقد"أصابها حزنٌ كبير" عندما تم تشخيص مرض السرطان لدى الملك الأردني الحسين ، و لا يبدو أنها تمانع كثيراً إدارته لدولةٍ بوليسية يُعذّب فيها

الضحايا الكُثر ، و يُسجنون و يُقتلون دون وجه حق ، و يدرك المرء في هذا المقام أن ما يدخل في الحساب هو صداقتها للملك الصغير بالطبع ، أضف إلى ذلك بعض التفهّم العملي الدقيق لحكمه مملكةً "حديثة" . لقد امتلأت عيناها بدموع الغضب عندما فوجئت بالبرهان على جريمة تدنيس الفسيفساء اللبنانية المسيحية ، لكنها لا تجهد نفسها بالتطرق إلى عمليات تدنيسٍ أخرى في إسرائيل (مقابر المسلمين على سبيل المثال ومئات القرى المدّمرة في سوريا و لبنان و فلسطين) و يتجلّى ازدراؤها و احتقارها الحقيقيان في مقاطع كالمقطع التالي ، الذي تتحدّث فيه عن أفكارٍ و أمانٍ تنسبها إلى امرأةٍ سوريّة من الطبقة الوسطى ، كانت ابنتها قد تحوّلت لتوّها لتصبح إسلامية : " لن تحصل على ما تتوق إليه أمٌّ سوريّةٌ من الطبقة الوسطى لن تشهد حفل زفاف كبيرٍ لابنتها و لن تراها ترتدي الفستان الأبيض المألوف و الطرحة المرصّعة بالألماس ، لن يكون هناك صورٌ مؤطّرةٌ بالفضة تجمع العروسين السعيدين على الطاولة أمام الموقد في غرفة الجلوس و هما في اللباس الرسمي الأسود و ثوب الزفاف ، لن تتلوّى أجساد الراقصين على الحلبة، و لن يتدفّق سيل الشامبانيا حتى بزوغ الفجر ربما كان لأصدقاء نادين بناتٌ و أبناءٌ ممن رفضوهم أيضاً ، و احتقروهم في قرارة نفسهم للتسويات المذلّة التي قاموا بها ليحصلوا على المكاسب في النظام السوري القاسي و الجامد . فإن كانت ابنة لعائلة تشكّل دعامةً من دعامات الطبقة البرجوازية الدمشقية ، قد خضعت لنفوذ الإسلام من كان محصّناً إذاً ؟ تتفه هذه الروايات الزائفة المغشوشة الناس الذين اقتحمت ميللر بيوقم و خصوصياقم و تقلّل من احترامهم .

بما أن رغبة ميللر في طعن مصادرها - و حتى الأصدقاء منهم - واضحةٌ جليّة ، فالسؤال الهام الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا كتبت هذا الكتاب أصلاً ؟ حتماً لن يكون السبب إلا عاطفتها و نزوعها ، فلنتأمل مثلاً إقرارها بأنها تخاف لبنان و تكرهه ، و تكره سوريا أيضاً ، تضحك إزاء ليبيا ، و تنبذ السودان ، تشعر بالأسف على مصر التي تخيفها قليلاً ، و بالخيبة حيال السعودية .

ما من شيءٍ يثني اهتمامها المحصور بالمخاطر الناجمة عن النضال الإسلامي المنظّم ، و الذي سأجازف بتخمين نسبته التي قد تكون أقل من خمسة بالمئة من العالم الإسلامي ذي المليار نسمة .إنها تؤيد القمع العنيف للإسلاميين (لكن بلا تعذيب ، و دون لجوءٍ إلى "وسائل لا شرعيّة" أخرى في هذا القمع ، و هنا يفوتها التناقض في موقفها) ، و لا تأسف لغياب الممارسات الديمقراطية أو الإجراءات القانونية في فلسطين و الأردن و مصر طالما أن الإسلاميين هم الهدف و في أحد المشاهد الذي يبعث على الغثيان

شاركت ميللر فعلياً رجال الشرطة الإسرائيلية في استجواب أحد السجناء المسلمين المتهمين بالإرهاب ، فتغاضت بلطفٍ و تهذيب عن اعتماد تلك الشرطة للتعذيب المنظّم و عن ممارساتها الأخرى الجديرة بالمساءلة (الاغتيالات عن طريق التجسس ، الاعتقالات في أنصاف الليالي و تدمير المنازل) و تقدّمت لتسأل رجلاً مقيّداً بعض الأسئلة التي تهمّها.

ربما كان التقصير الأهم لميللر كصحفية يتجلّى في بنائها للروابط و تقديمها للتحليلات المتعلّقة بالمسائل التي تنسجم مع أطروحتها عن الخاصيّة التي لا تطيقها في العالم العربي ، ألا و هي الخاصية القتالية .

لست ممن يخالفون وجهة النظر السائدة التي تفيد في أن العالم العربي يمرّ بظروف مزرية اليوم ، و قد عبّرت عن رأيي هذا مراراً خلال العقود الثلاثة المنصرمة ، لكن ميللر بالكاد تشير إلى حقيقة وجود سياسات أميركية عازمة معادية للعرب و المسلمين هي تتلاعب بالحقيقة فتارةً تشدّد عليها و طوراً تقلّل من أهميتها ، فلنأخذ المثال اللبناني الذي تذكر فيه حادثة اغتيال بشير جميّل عام ١٩٨٢ حيث تعطي انطباعاً أنه حقّق أغلبيةً ساحقة في الانتخابات الرئاسية ، دون أن تنوّه و لو حتى تنويهاً إلى أنه اعتلى سدّة الحكم بينما كان الجيش الإسرائيلي في بيروت الغربية ، تماماً قبل ارتكاب المجازر في مخيمات صبرا و شاتيلا ، كما لم تذكر أنه كان لعدة سنوات رجل الموساد في لبنان وفقاً لمصادر إسرائيلية ومنها يوري لوبراني ، و أنه كان قاتلاً متبجّحاً و سفّاحاً داهيةً ، و أن هيكل السلطة السائدة في لبنان مفعمٌ بشخصياتٍ من أمثال إيلي حبيقة المسؤول المباشر عن تنفيذ مجازر المخيمات . أوردت ميللر أمثلةً عن معاداة السامية لدى العرب دون أن تأتي على ذكر ما أطلقه القادة الإسرائيليون بيغن و شامير و إيتان و مؤخراً إيهودا باراك (الذي تؤلهه الصحفية في صحيفة "ذا نيويوركر" إيمي ويلنتز) من نعوت على الفلسطينيين : بهائم تمشي على قدمين ، جنادب ، صراصير و بعوض ، و بناءً على ذلك استخدم أولئك القادة الطائرات و الدبابات لمعاملة الفلسطينيين و ما زالوا يستخدمونها حتى الآن . و هذا هو الحال بالنسبة للحروب الإسرائيلية ضدّ المدنيين ، و الحملة المخطّطة المستمرة و المنظّمة ضدّ سجناء الحرب و ضدّ القاطنين في مخيّمات اللاجئين ، لم تتحدّث عن تدمير القرى و عن تفجير المشافي و المدارس ، و عن التسبّب المتعمّد في خلق مئات الآلاف من اللاجئين ، فكل ما سبق يتم دفنه تحت مقدارٍ كبيرٍ من الثرثرة و الحماقات .

تحقّر ميللر الحقائق ، فهي تفضّل اقتباس أقاويل مملّة ضمن سياق طريقتها في جعل

العرب جديرين بأن يكونوا أهدافاً للإرهاب الإسرائيلي المدعوم أميركياً ، و هي بذلك تقدّم مثالاً ممتازاً على تغطية صحيفة "نيويورك تايمز" الحالية للشرق الأوسط ، هذه التغطية التي تمر بأقل مراحلها انحطاطاً في الوقت الراهن .

تقر ميللر في خاتمتها الضعيفة أن التوبيخ الذي لجأت له قد يكون قاسياً قليلاً ، ثم تعزوه إلى "محبتها" للمنطقة و شعبها لكني و بكل صدق لا أجد أنها أحبّت و لو أمراً واحداً ، إذ لم يعجبها ما دعته امتثال المجتمع العربي للأعراف و العادات و لا التفاخر و التباهي بالمطبخ العربي الذي تقول أن العرب يخلطون بينه و بين كرم الضيافة و لا اللغات التي لم تتعلمها ، لم تحب الناس الذين تهزأ بهم أو تاريخ و ثقافة المكان اللذين تعتبرهما أكذوبة كبيرة مترافقة بضجيجٍ و عنف غامضين ليس بإمكانها أن تلجَ إلى حياة المكان ، أو أن تستمع إلى المحاورات و النقاشات مباشرةً ، لا يمكنها أن تقرأ الروايات و المسرحيات بنفسها (كما رفضت إقامة الصداقات مع مؤلفيها) لم يكن بمقدورها أن تتمتع بنشاط و دماثة الحياة الاجتماعية و لم ترَ المناظر الطبيعية هناك .

هذا هو ثمن أن تكون مراسلاً لجريدة التايمز في زمن "الخبرات" الصامتة و في زمن اتخاذ المواقف الجاهزة .

لن يخبرك كتاب ميللر أن هناك خلافاً عربياً - عربي حول التفاسير المتعلّقة بالشرق الأوسط و الإسلام و أشكال تصويرهما ، كما يبدو من المصادر التي اختارتها أنها محازبة بعمق ، من الظاهر أنها عدوٌّ للقومية العربية التي أعلنت موتها في الكتاب مراراً ، دعمها للسياسات الأميركية واضحٌ جلي ، إنها خصمٌ لدودٌ لأي شكلٍ من أشكال القومية الفلسطينية غير المطابقة لما جاء في اتفاقيات أوسلو .

باختصار ميللر صحفيّة سطحيّة عنيدة ، و أظن أن كتابها الضخم طويلٌ جداً بالنسبة لما أرادت إيصاله جرّاء تأليفه ، لكنه مقتضبٌ للغاية من حيث التفكير و التحليل المحترم و التركيب و الحقائق .

كان حرياً بالمساكين من المسلمين و العرب - الذين يُحتمل أنهم منحوها ثقتهم - أن يحوزوا معرفةً أكبر كيلا يخلطوا بين ضيفٍ دخيلٍ مدسوس و بين صديق .

صدام الجهل

لم تلبث مقالة صموئيل هانتنغتون « صِدام الحضارات ؟ » التي نشرتها مجلة « الشؤون الخارجية » في عددها الصادر في صيف **١٩٩٣** أن استحوذت قدراً مذهلاً من الاهتمام والتفاعل ، فقد كان هدف المقالة تزويد الأميركيين بأفكار إبداعية عن «مرحلة جديدة » تمر بها السياسة الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة. وبدت المصطلحات التي استخدمها هانتنغتون – وهو يسوق حججه – بغاية القوة والتبجح والجسارة والمثالية ، ومن الواضح أن اهتمامه كان منصباً على منافسيه في صفوف صنّاع السياسات أي الباحثين النظريين من أمثال فوكوياما وأفكاره عن نهاية التاريخ بالإضافة إلى تلك الحشود التي احتفلت ببدء العولمة والعصبية القبلية وزوال الدولة .

لكنه يسلّم بأن استيعابهم اقتصر على بعض جوانب هذه الفترة ، لقد كان على وشك أن يعلن « الجانب الحاسم والرئيسي مما قد تكون عليه السياسة العالمية في السنوات القادمة .» فهو يؤكد دونما تردد : « أفترض أن الأسباب الجوهرية للصراعات في هذا العالم الجديد لن تكون أيديولوجية ولا اقتصادية في المقام الأول ، إنما ستحتل الأسباب الحضارية موقع المسيطر في انقسامات الجنس البشري و صراعاته وستبقى دول الشعوب القوى المحركة الأكثر تأثيراً في شؤون العالم ، لكن الصراعات الرئيسية ستحدث بين الأمم وبين مجموعات من الحضارات المختلفة.

سيهيمن صدام الحضارات على السياسة العالمية بينما ستمثل الحدود الفاصلة فيما بينها جبهات لمعارك المستقبل.»

ويبني هانتنغتون معظم براهينه في الصفحات التالية على فكرة غامضة عمّا يدعوه « هوية الحضارة » و « التفاعل بين سبع أو ثمان حضارات رئيسية » ويحوز الصراع بين اثنتين منها – ألا وهما حضارة الإسلام والحضارة الغربية - على حصة الأسد من اهتمامه ، وهو يعتمد – بشكلٍ كبير – في هذا الفكر الحربوي على مقالة كتبها عام **١٩٩٠** المستشرق المتمرّس برنارد ليويس الذي تتجلّى صبغته الأيديولوجية في العنوان «جذور غضب المسلمين».

وتؤكد المقالتان بتهور على تجسيد كيانين هائلين يُدعيان «الغرب» و «الإسلام» ، فكأننا نتناول المسائل بالغة التعقيد كالهوية والحضارة في عالم كرتوني يسحق فيه باباي وبلوتو أحدهما الآخر دون رحمة ، على أن يكون هناك طرف فاضلٌ فعّالٌ يعلو دائماً

على عدوه ، وبالتأكيد ليس لدى هانتينغتون أو ليويس الكثير من الوقت للاهتمام بالحيوية والتعددية داخل كل حضارة على حدة ، أو بالحقيقة التي تقول أن الخلاف الرئيسي في معظم الحضارات الحديثة يدور حول تعريف أو تفسير كل منها ، أو بالاحتمال غير الجذّاب الذي يقول بأن جزءاً كبيراً من الديماغوجية و الجهل المطبق يكمن في ادّعاء الحديث باسم دينٍ أو حضارة برمتها ، ليس الغرب غرباً ولا الإسلام إسلاماً على الإطلاق.

يقول هانتنغتون أن التحدي الذي يواجه راسمي السياسات الغربيين يتمثل في ضمان ازدياد قوة الغرب ليتجنب خطر الآخرين عامةً والإسلام خاصةً ، وما هو أكثر إزعاجاً افتراضه صحة وجهة نظره التي تزعم أنه يستطيع من عليائه أن يعاين العالم جملةً واحدة متجاوزاً الروابط المألوفة والولاءات المخفية ، فكأن الآخرين يتلفّتون حولهم باحثين عن الأجوبة التي سبق له أن وجدها. ويتبيّن أن هانتينغتون هو أيديولوجي يسعى إلى تحويل «الحضارات» و «الهويات» إلى ما لا يمكن أن تكون عليه من كيانات جامدة منغلقة تم استخلاصها من عدد هائلٍ من التيارات والتيارات المضادة التي تبعث الحياة في التاريخ الإنساني الذي مكّنته عبر العصور ألا يكون تاريخاً للحروب الدينية والاستعمار فحسب ، بل تاريخاً للتبادل والتفاعل والمشاركة أيضاً. يتم تجاهل هذا التاريخ غير المُدرَك تقريباً في ظل الاندفاع إلى تسليط الضوء على تلك الحرب المركّزة والضيقة إلى حدٍّ يدفع إلى السخرية ، والتي تظاهر نظرية «صدام الحضارات» بأنها هي الواقع الملموس.

حاول هانتنغتون عندما نشر كتابه الذي حمل نفس الاسم **١٩٩٦** أن يصقل حجته قليلاً ، كما أضاف الكثير الكثير من الحواشي ، لكنه لم ينجح إلا في تشويش نفسه وإظهار أنه كاتبٌ أخرق ، ومفكر تعوزه حدة الذهن .

بقي النموذج الأساسي للغرب في مواجهة البقية (والذي أعادت صياغته معارضة الحرب الباردة) دون أن يُمَس ، كما ترسّخ هذا على نحو تدريجي وضمني غالباً في النقاشات التي أعقبت أحداث **١١** أيلول المريعة. لقد تحوّلت الهجمات الرهيبة ذات الدوافع الانتحارية المريضة والتي خُطط لها بعناية مع عملية الذبح الجماعية التي نفذها جماعة صغيرة من المقاتلين الممسوسين لتصير دليلاً قاطعاً على صحة أفكار هانتنغتون ، فبدلاً من أن ترى الشخصيات البارزة دولياً – من رئيسة وزراء الباكستان السابقة بنازير بوتو وحتى رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني – القضية على حقيقتها

التي تتلخص بأن عصبة صغيرة من المتعصبين المخبولين قد استولت على الأفكار العظيمة (وأستخدم هنا كلمة الفضفاضة) سعياً وراء تحقيق أغراضها الإجرامية ، راحت تلك الشخصيات تقدم المواعظ (على طريقة الأساقفة) عن مشكلات الإسلام، وقد احتج برلسكوني بأفكار هانتنغتون أثناء تبجُّحه في الحديث عن التفوق الغربي:

كيف أن "لدينا" موتزارت ومايكل أنجلو أمّا هم فليس لديهم. (فيما بعد قدَّم برلسكوني اعتذاراً فاتراً عن إهانته للإسلام.) لكن لماذا بدلاً من ذلك لا نرى تماثلاً بين أسامة بن لادن وأتباعه من جهة وبين أتباع جيم جونز[٢] في غويانا وطائفة أوم شينريكيو[٣] اليابانية و حركة «ذا برنش أوف دافيد يانز»[٤] من جهة أخرى؟ وإن كانوا باعتراف الجميع أقل مشهديةً في تدميرهم.

وحتى صحيفة « الاقتصادي - **The Economist** » البريطانية الأسبوعية ، التي تتسم بالاعتدال والواقعية لجأت في عددها الصادر في ٢٢ أيلول إلى إطلاق الأحكام العامة ، فقد أفرطت بالإشادة بهانتنغتون الذي كان « قاسياً وشمولياً » ، لكن رغم ذلك حاد الذهن في ملاحظاته حول الإسلام. وتقول المجلة على لسان هانتينغتون و بلهجةٍ رزينة ليست في مكانها أن «هناك في العالم الإسلامي قرابة مليار مسلم مقتنعين بتفوقهم الحضاري ، لكنهم مهووسون بدونيتهم من حيث النفوذ و القوة.» هل أجرى اختباراً لعينة من مئة أندونيسي ومئتي مغربي وخمسمئة مصري وخمسين من البوسنيين ؟ حتى ولو قام بذلك فأي نوعٍ من العينات هي تلك ؟

لا يمكن إحصاء المقالات الرئيسية التي تُنشَر على صفحات جميع الصحف والمجلات الأميركية والأوربية وهي تساهم بالإضافة إلى ذلك السجع من مفردات التهويل والتنبؤ ، التي لا تستخدم بغرض التنوير والتثقيف ، إنما يتمُّ تبنيها صراحة بغية إذكاء سخط ونقمة الغربيين والواجب المنوط بهم كأبناء لـ "الغرب". ويستخدم - من نصَّبوا أنفسهم مقاتلين في حرب الغرب - وبشكلٍ خاص أميركا - ضد كارهيه

---

٢ - جيم جونز: زعيم طائفة دينية في غويانا ، انتحر أكثر من تسعمائة من أتباعه في جونز تاون في غويانا نزولاً عند تعليماته ، وذلك بتناولهم جرعات من شراب يحتوي على السيانيد.

٣ - أوم شينريكيو: طائفة يابانية بوذية ، أتهم قادتها بإطلاق غاز الأعصاب في نفق مشاة حاشد مما أودى بحياة اثني عشر شخصاً ، كما تضرَّر أكثر من خمسة آلاف شخص جراء الحادث.

٤ - « ذا برنش أوف دافيد يانز »: حركة دينية أميركية ، قضى معظم أفرادها في حريق أتى على مركزهم قرب واكو في ولاية تكساس ، بعد أن حاصرهم رجال الشرطة الفيدرالية الأميركية واحداً وخمسين يوماً.

وسارقيه ومدمّريه - لغة تشرشل في غير مكانها دون أن يعيروا الكثير من الانتباه إلى تعقيدات التاريخ التي ما تنفك تتحدى هذا الاختزال وتتسرب من بلدٍ إلى أخرى فتتقدم متجاوزة الحدود التي يُفترض بها أن تفصلنا إلى معسكرات مسلّحة ومنقسمة. هذه هي المشكلة التي تكتنف التصنيفات المُفتقرة للتنوير ، إنها تضلّل العقل وتشوشه عندما يحاول أن يفهم هذا الواقع الفوضوي الذي يصعب تصنيفه أو استيعابه .

أذكر بعد أن ألقيت محاضرةً في جامعة الضفة الغربية عام **١٩٩٤** قاطعني أحد الرجال إذ استقام بين الحضور وبدأ يهاجم أفكاري "الغربية" المعارضة لأفكاره الإسلامية المتزمّتة ، فكان أول رد خطر لي على بال: « لماذا ترتدي بدلةً وربطة عنق؟ إنها غربيةٌ أيضاً.» جلس الرجل مكانه وعلت وجهه ابتسامةٌ تدلُّ على الحرج. لكن الحادثة تعود إلى ذهني في ظل ذلك الانتشار الواسع للمعلومات المتعلقة بإرهابيي **١١** أيلول: كيف لهم أن يتقنوا كل تلك التفاصيل التقنية اللازمة لتوجيه ضربتهم المدمرة لمركز التجارة العالمي ولمبنى البنتاغون إضافة إلى الطائرات التي اغتصبوها. إذا أراد المرء أن يضع حداً يفصل بين التكنولوجيا « الغربية » وبين ما عبَّر عنه برلسكوني بعجز « الإسلام » عن أن ينضم لـ « الحداثة » فأين سيضعه ؟ ليس الأمر بهذه السهولة طبعاً وفي نهاية المطاف ما هو مدى عدم كفاية التصنيفات والأحكام المطلقة وتلك الأشكال من الجزم بين الحضارات ، فإلى حد ما نجد مثالاً في العواطف الساذجة وفي ذلك التجمع السفسطائي الحاذق للأساليب التي تعطي المكان للحد الذي لا يفصل بين «الغرب» و « الإسلام » فحسب ، إنما بين الماضي والحاضر ، وبيننا وبينهم أيضاً ، وذلك لإغفال كل المفاهيم المرتبطة بالهوية والقومية التي يعتريها جدل واختلاف لا ينتهي. إن القرار الذي اُتخذ لرسم الحدود الفاصلة في الرمال ولإطلاق الحملات الصليبية ولمواجهة شرورهم بصلاحنا وللقضاء على الإرهاب ، ولإفناء الأمم جملةً وفقاً لكلمات بول ولفوويتز العدمية ، إن هذا القرار لا يسهّل من مهمة فهم أيٍ من تلك الكيانات المزعومة ، إنه يعبِّر عن مدى بساطة إصدار البيانات العدائية الرامية إلى حشد العواطف الشمولية عوضاً عن أن يعكس ويتفحّص ماهية ما نتعامل معه في الواقع ويتبيّنها ، إنها تلك الحيوات المترابطة التي لا تُعد ولا تُحصى ، الحيوات المفعمة بالتجارب سواءٌ «حيواتنا » أم «حيواتهم ».

في كانون الثاني وآذار من عام **١٩٩٩** نشرت صحيفة «الفجر = **Dawn**» الباكستانية الأسبوعية التي تحظى باحترامٍ واسعٍ سلسلةً من ثلاث مقالات لافتة

خاطب فيها إقبال أحمد قراءً مسلمين ، وحلّل أصول اليمين الديني ، فكان صارماً في هجومه على عملية تشويه الإسلام التي قاد لها طغاةٌ مستبدون متعصبون لأن هاجسهم بضبط وتنظيم سلوكهم الشخصي يعزز «قانوناً» إسلامياً تم اختزاله إلى قانون للعقوبات، كما تمت تعريته من إنسانيته ومن بحثه الجمالي والفكري وتقواه الروحية.»

وهذا « يستلزم تأكيداً على جانبٍ واحدٍ – غير مقارنٍ عادةً– من الدين مع إهمالٍ تامٍ لجانبٍ آخر، وتشوه هذه الظاهرة الدين و تمزق التقاليد كما تحرف التقدم السياسي عن النمو والازدهار.» ويستهل أحمد بإبراز المعنى الغني والمعقد والمتعدد لكلمة الجهاد كمثالٍ مناسبٍ على هذا التشويه ثم يقوم بإظهار اختزالها في الوقت الراهن إلى تلك الحرب اللا تمييزية ضد أعداءٍ مزعومين ، من المحال «التعرف على الإسلام.. الدين ، المجتمع ، الحضارة ، التاريخ أو السياسة .. كما عاشه المسلمون واختبروه على مرّ العصور.» ويختتم أحمد بقوله أن الإسلاميين الجدد : «غير مهتمين بالروح بل بالسلطة ويحشدون الناس لأغراض سياسية بدلاً من مشاركتهم تطلعاتهم ومعاناتهم و التخفيف منها ، إن جدول أعمالهم السياسي محدودٌ ومقيّد بالزمن.» وما يجعل الأمور أسوأ هو أن ثمة تعصباً وتشويهات مماثلة تأخذ مكانها في خطابي العالمين «اليهودي» و «المسيحي». أدرك كونراد بقوةٍ أكبر مما تخيَّل جميع قرائه – عند نهاية القرن التاسع عشر – أن الفروق بين لندن المتحضرة وبين « قلب الظلمة» سرعان ما تلاشت في الظروف القصوى ، وما لبثت أعلى درجات السلم الحضاري في أوروبا أن انحدرت إلى أكثر الممارسات بربريةً دون أن تمرَّ بفترةٍ من الإعداد أو الانتقال ، كما قدّم كونراد في العميل السري عام **١٩٠٧** وصفاً لانجذاب الإرهاب نحو العناوين المجردة مثل « العلم الخالص » (وبتوسيع « الإسلام » أو « الغرب ») كما تحدّث عن الانحلال الخلقي المطلق للإرهابي.

ولأن ثمة روابط بين حضاراتٍ متحاربة ظاهرياً أوثق مما يرغب معظمنا بأن يصدق فقد أظهر كلٌّ من فرويد ونيتشه كيف تنتقل الممنوعات – غالباً بسهولةٍ مذهلة – عبر حدود مصونة ومضبوطة بعناية ، لكن هذه الأفكار الرشيقة المليئة بالغموض والشكوك التي تكتنف الأفكار الغامضة التي نحتفظ بها لتزودنا بشكلٍ نادر بالتوجيهات العملية الملائمة لمواجهة أوضاعٍ كالتي نواجهها الآن ، ومن هنا كانت جملة من ضروب المعارك الأكثر تأكيداً (الحملة الصليبية ، الخير ضد الشر ، الحرية ضد الخوف.. الخ) المستنبطة من التضاد الذي ادّعى هانتينغتون وجوده بين الإسلام والغرب ، والذي

اعتمد عليه الخطاب الرسمي في مفرداته في الأيام الأولى التي تلت أحداث ١١ أيلـول وبعد تلك الفترة كان هناك تخفيض في ذلك الخطاب ، لكننا عندما نجري تقديراً للكم الراسخ من أعمال ولهجة الكراهية ، بالإضافة إلى التقارير التي تتحدث عن مسـاعي تنفيذ القوانين الموجهة ضد العرب والمسلمين والهـنود في شتى أنحاء البلاد يؤكد لنـا هذا التقرير أن النموذج ما زال مستمراً.

ثمة سببٌ آخر لاستمراره ، ألا وهو تزايد حضور المسلمين في مختلف أنحاء أوربـا والولايات المتحدة ، فبالنظر إلى سكان فرنسا ، إيطاليا ، ألمانيا ، إسبانيا ، بريطانيـا ، أميركا وحتى السويد لا بد أننا سنقر أن الإسلام حالياً لم يعد على الهامش في الغرب ، وإنما أصبح في مركزه ، لكن ما هو التهديد الذي يمثله هذا التواجـد؟ إن ذكريـات الفتوحات العظيمة الأولى للعرب المسلمين دفينة في الثقافة الجمعية ، وقد كتب المؤرخ البلجيكي هنري بيرين في كتابه "محمد وشارلمان"(١٩٣٩) الذي شكّل مفصلاً هاماً أن تلك الفتوحات بعد أن بدأت في القرن السابع مزّقت نهائياً وحـدة البحـر الأبـيض المتوسط القديمة ، ودمّرت التركيب المسيحي الروماني لتسنح الفرصة لحضارة جديـدة سادتها قوىً شمالية (ألمانيا وفرنسا الشارلمانية) واصلت رسالة الدفاع عن " الغـرب" ضد أعدائه الحضاريين والتاريخيين حسب ما رأى المؤرخ .

لكن للأسف! أهمل بيرين الحقيقة التي تؤكـــد أن الغرب اعتمد في تأسيس جبهة الدفاع الجديدة تلك على إنسانية الإسلام وعلومه وفلسفته ، وعلى علم التأريخ والاجتماع الإسلاميين ، لقد أسقط الواقع القائل بأن الإسلام قد تواجد أساساً بـين العصور الكلاسيكية الغابرة وبين العالم الشارلماني ، حتى أن دانتي – العدوّ الكبير لمحمّد – أقرّ بذلك عندما خصّص قلب جحيمه مكاناً للنبي .

وهناك أيضاً إرث التوحيد المتواصل والأديان الإبراهيمية الـتي أحسـن لـويس ماسينون بتسميتها بهذا الاسم ، كانت البداية مع اليهودية ثم المسيحية ، فكـان كـل منها وريثاً التزم بما جاء قبله ، وبالنسبة للمسلمين أنجز الإسلام سلسلة الأنبياء وختمها و لا يوجد حتى الآن تاريخاً جديراً بالاحترام خالياً من الغمـوض للخـلاف متعـدد الجوانب بين الأتباع الثلاثة لأكثر الآلهة غيرةً (حتى أنهم لا يشكلون ضمن كل ديـنٍ منها معسكراً موحداً متراصاً) ، ذلك على الرغم من الالتقاء الـدموي علـى أرض فلسطين الذي يقدم مثالاً دنيوياً جلياً على ما يزال تناقضاً حاداً فيما بينهم. ومن هنـا ليس مفاجئاً أن المسلمين والمسيحيين يتحدثون عن الحروب الصليبية والجهـاد بكـل سرور ، كلا الطرفين يتجاهل وجود اليهود بلا مبالاة وترفع ، يقول إقبال أحمـد أن

مثل هذه الأجندة « تبعث الطمأنينة في نفوس الرجال والنساء المعزولين وسط المخاضة في المياه العـــميقة بين التقليد والحداثة ».

لكننا نسبح جميعاً في تلك المياه ، أبناء الغرب والمسلمون وآخرون غيرنا كلنا سواء وبما أن المياه جزءٌ من محيط التاريخ فعبثاً نحاول شقها أو فصلها بحدود واهية.

نمر حالياً بأوقات شدّ عصبية ، لكن من الأفضل لنا أن ننظر إلى المسألة من زاويـــة المجتمعات الفعالة والمجتمعات الواهنة ، وبلغة السياسة الدنيوية التي تميــز بــين العقــل والجهل ، ومن حيث المبادئ العالمية للعدالة والظلم ، لا أن نتـــوه في البحـــث عـــن العناوين المجرّدة الضخمة التي ربما يمكنها أن تمنحنا قناعة سريعة الزوال ، لكنـــها غـــير قادرة على تزويدنا إلا بالقليل من المعرفة الذاتية و اليسير من التحليل الغني بالمعلومات. فكرة « صدام الحضارات » هي فكرة تحليلية تشبه قولنا «حرب العوالم» ، و تصـــلح لتعزيز الدفاع عن الغرور الذاتي ، أكثر مما يمكن الاعتماد عليها في عملية فهم نقـــدي للاعتماد المتبادل المذهل في عصرنا هذا.

" الإسلام " و " الغرب" عنوانان لا يكفيان

ربما تكون الولايات المتحدة قد فشلت غالباً في النظر خارج حـدودها ، لكـن ضآلة الوقت الذي يتم إنفاقه في محاولة فهم أميركا تبعث على اليأس .

كشف الرعب الهائل الذي صعق نيويورك (و واشنطن بدرجة أقل) عـن عـالم جديدٍ من المهاجمين المجهولين اللامرئيين ، و من العمليات الإرهابية التي لا تحمل رسالةً سياسية ، و من الدمار المجرّد من أي معنى .

دون شك سيستمر الذعر و الخوف و الشعور - الذي تم تعزيزه - بالغضـب و الصدمة بين مواطني المدينة المنكوبة زمناً طويلاً ، كذلك سيستمر الحـزن و الأسـى الصادقان نتيجة المجزرة الوحشية التي راح ضحيتها الكثير من الناس .

لحسن حظ النيويوركيين أن العمدة رودي جولياني ، و قد تعوّدنا أن نراه شخصيةً بغيضة و رجعية و مولعة بالقتال ، سارع إلى اتخاذ موقف كنائسي . لقد قاد رجـال شرطة المدينة و إطفائها و طوارئها الأبطال بهدوءٍ وعقلانيةٍ و تعاطفٍ استثنائي ، فبذلوا جهداً لافتاً لكن للأسف مع فقدانٍ واسعٍ في الحياة .

كان العمدة أول الأصوات المحذِّرة من الهجمات الشوفينية المسعورة ضدّ الجاليـات العربية و الإسلامية الكبيرة في المدينة ، أول من عبّر عن الإحساس باللوعة ، كما كان أول من استحثّ الناس على استئناف الحياة بعد الضربات المدّمرة .

ليت هذا كل شيء . أدخلت الأنباء التي بثّها التـلفزيون الوطني (باستمرارية و إصرار لكن ليس بأسلوب تنويري دائماً) الذعر الذي سبّبته تلك القوة الماحقة المرعبة إلى كل منـزل . شدّد معظم المعلّقين بل و بالغوا في التنبؤ و التكهّن بما يشـعر بـه معظم الأميركيين : الخسارة الرهيبة ، الغضب ، الإهانة ، إحساسهم بـأنهم عرضـةٌ لأعمال العنف ، الرغبة بالثأر و الانتقام اللا محدود .

بلغ السياسيون و النقّاد و الخبراء المجازون حدّاً أبعد من التعـابير التقليديـة عـن الكارثة و عن المشاعر الوطنية ، إذ أنهم شدّدوا انطلاقاً من إحساسهم بالواجب علـى أننا لن نُهزم و لن نُردع و لن نتوقّف ما لم يزل الإرهاب . الكل مجمعٌ علـى أنها حربٌ ضدّ الإرهاب ، لكن أين ؟ وعلى أية جبهات ؟ و ما هي الأهداف الملموسة ؟ ليس هناك من جواب ، إلا أنك تستطيع أن تستشعر إيحاءً غامضاً بأن الشرق الأوسط و الإسلام هما ما " نحن " ثائرون ضدّه الآن ، و أنه من الواجب سحق الإرهاب .

مع ذلك إن أكثر ما يبعث على اليأس هو ضآلة الوقت الذي يجري إنفاقه في محاولة فهم الدور الذي تلعبه أميركا في العالم و في إدراك ضلوعها المباشر في الواقع المعقد لتلك البلدان ، و الذي ما زال يتسبّب في بقاء بقية العالم غاية في البعد عن الاستيعاب الفعلي للأميركي العادي . قد تظن أن أميركا كانت عملاقاً نائماً و ليس قوة عظمى في حرب دائمة تقريباً (أو طرف دائم في النزاعات) في شتّى بقاع العالم الإسلامي . حُوِّل اسم ابن لادن إلى اسمٍ مثير للرعب لدى الأميركيين ، و ذلك لطمس تاريخه و أتباعه الوهميين قبل أن يصبحوا رموزاً خشبية لكل ما هو منفرٍ و كريه في المعتقد الجمعي الشعبي . و الآن سيجري حشد العواطف الجمعية و دفعها باتجاه حرب تشبه إلى حدٍ مذهل مطاردة الكابتن أهاب لموبي ديك ، و ليس ما يجري إظهاره على أنه دولة إمبراطورية هوجمت في عقر دارها للمرة الأولى ، و هي تدافع عن مصالحها في نزاعٍ جرى إعادة رسم خريطته الجغرافية على حين غرّة ، الحدود ليست واضحة و كذلك هي الأطراف في هذه الحرب . يجري الآن تناقل الرموز المانوية [٥] و سيناريوهات التدمير الشامل ، بينما يُلقى بالعواقب المستقبلية و بالقيود البلاغية أدراج الرياح .

إننا في حاجةٍ إلى تفهّم عقلاني لمجمل الأوضاع الآن ، و ليس إلى المزيد من القرع على الطبول . من الواضح أن جورج بوش و إدارته يرغبون بالأسلوب الثاني و ليس بالأول . رغم ذلك فإن الحكومة الأميركية ترادف في قاموس معظم الشعوب الإسلامية و العربية القوة المتغطرسة المعروفة بدعمها المقدّس و السخي ليس لإسرائيل فحسب و إنما للعديد من الأنظمة العربية القمعية أيضاً ، و بتجاهلها لإمكانية الحوار مع الحركات المدنية و مع الشعوب التي تعيش واقعاً مزرياً بحق في هذا المقام لا ترتكز المعاداة لأميركا على كره الحداثة و التكنولوجيات ، بل على حكايةٍ من التدخّلات العنيفة و على حالاتٍ محدّدة من السلب و النهب ، كما في حالة الشعب العراقي الذي يعاني من العقوبات الاقتصادية المفروضة من قبل أميركا ، و الأراضي الفلسطينية التي ترزح منذ أربعة و ثلاثين عاماً تحت الاحتلال الإسرائيلي المدعوم أميركياً . تستغل إسرائيل بقسوة الفاجعة الأميركية إذ تعزّز احتلالها و قمعها العسكريين للفلسطينيين . يتجاهل الخطاب السياسي في أميركا هذه الأحداث منغمساً في التأكيد على عبارات من نمط " الإرهاب " و " الحرية " ، بينما تخفي هذه العبارات المجرّدة الواسعة مصالح

---

(١) ماني (٢١٦-٢٧٦ م) : رجل دين فارسي آمن بالصراع بين النور و الظلام .

مادية دنيئة إنها تخفي تأثير العامل النفطي ، و إحكام جماعات الضغط الصهيونية و تلك التابعة لوزارة الدفاع لقبضتها على الشرق الأوسط برمته ، و العداء (و الجهل أيضاً) التاريخي للإسلام و الذي يتخذ أشكالاً متجدّدة كل يوم .

تتبلور مسؤولية المثقفين في أن يمتلكوا حسّاً نقدياً أكبر بالواقع ، ثمة عمل إرهابي قد حدث بالطبع ، لكن معظم حركات الكفاح الحديثة اعتمدت على الإرهاب في إحدى مراحلها . ينطبق هذا على الكونغرس الوطني الإفريقي بزعامة نيلسون مانديلا و على العديد غيره بمن فيهم الحركة الصهيونية علاوةً على ذلك إن قصف المدنيين العزّل عبر مقاتلات الـــ (إف١٦) و الحوّامات الحربية ، يحظى بتوافقٍ وطني من حيث بنيتــه و تأثيره كإرهاب .

أسوأ ما في الإرهاب عامةً هو إلحاقه بعناوين مجرّدة دينية و سياســية و خرافــات مختزلة لا زالت تنحرف عن التاريخ و الصواب . و هنا بالضبط يجدر بالوجدان المدني سواء في أميركا أو الشرق الأوسط أن يثبت وجوده . لا يمكن لأية قضية أو آلهــة أو فكرة مجرّدة أن تبرّر أعمال الذبح الجماعي للأبرياء ، لا سيما عنـدما تتـولّى القيـام بأعمال كهذه جماعةٌ صغيرة من الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم ممثلين لتلك القضية دون وجه حق .

بالإضافة إلى ذلك (ثمة خلافات واسعة حول القضية بين المسلمين) ليس هنــاك شكلاً واحداً للإسلام ، بل العديد من الأشكال كما هو الحال بالنســبة لأميركــا . ينطبق التنوّع على الأعراف و الأديان و الأمم كافةً ، رغم أن بعض أتباعها حــاولوا دون جدوى أن يرسموا حدوداً حول أنفسهم و أن يقولبوا عقائدهم بإحكام .

إن التاريخ أكثر تناقضاً و تعقيداً من أن يمثّله الديماغوجيون و هم أقل أهليةً لهــذا سواء من أتباعهم أو خصومهم .

المعضلة المتعلقة بالمتعصبين لدينٍ أو أخلاقٍ معينة اليوم هي أن مفاهيمهم الســاذجة عن الثورة و المقاومة (و من ضمنها الرغبة بالقتل و بالموت قتلاً) تبدو سهلة الإلحاق بأكاذيب تكنولوجية و بما يتضح أنه أعمال إشباعية للانتقام العنيف . يبدو أن منفذي تفجيرات نيويورك و واشنطن الانتحارية هم مثقفون من أبناء الطبقــة الوســطى ، و ليسوا لاجئين فقراء .

بدلاً من الحصول على قيادة حكيمة تشدّد على التربيــة و التعلـيم ، و التعبئــة الجماهيرية الشاملة و التنظيم طويل الأناة في سبيل خدمة القضية ، غالباً ما يقع الفقراء

و اليائسون فريسةً للأفكار الجذّابة و الحلول الدموية الطائشة التي تقدّمها هكذا نماذج مروّعة مستترةً تحت ترّهات و سفاسف دينية .

من جهة أخرى لا تضمن القوة العسكرية و السياسية الكبيرة امتلاك الحكمة و الرؤيا الأخلاقية . لم تُسمع الأصوات المشككة أو الإنسانية في ظل الأزمة الحالية ، لم يُسمع الرأي الذي يقول أن أميركا تعدّ نفسها لحربٍ طويلة الأمد هناك حيث ستُحابَه ستحارب برفقة حلفاء قيدوا إلى القتال على أراضٍ غامضة و من أجل أهدافٍ ملتبسة يجب علينا التراجع عن تلك الحدود التخيّلية التي تفصل الشعوب عن بعضها البعض ، يجب علينا إعادة التدقيق في العناوين و إعادة النظر في محدودية الموارد المتاحة ، يجب أن نتشارك أقدارنا كحضارات في المقام الأول رغم كل الشعارات و العقائد المحرّضة على القتال .

" الإسلام " و " الغرب " عنوانان قاصران عن أن نتبعهما اتباعاً أعمى . سيجري البعض وراءهما ، لكن أجيال المستقبل ستلوم نفسها على الحرب و الألم الذين طال أمدهما دون أن تقاطعهما وقفة نقدية و دون النظر إلى التاريخ المتشابك للإجحاف و الظلم ، دون السعي إلى التحرّر المشترك والتنوير المتبادل الذي يبدو أكثر تصلّباً مما يجب، إن شيطنة الآخر لا تؤمن قاعدة ملائمة للسياسات الجيدة ، لا سيما في هذا الوقت حيث يمكن مجابهة جذور الإرهاب الضاربة في الظلم و الإجحاف ، كما يمكن عزل الإرهابيين و ردعهم أو من الممكن أن نحرمهم القدرة على النشاط و العمل . يستلزم هذا منا الصبر و التربية لكنه جدير بأن نوظف مقدراتنا فيه ، بدلاً من توظيفها في مجالٍ واسعٍ من العنف و الألم .

الدور الاجتماعي العام للكتّاب و المثقفين

"الكاتب" في الاستخدام اليومي ضمن اللغات و الثقافات التي سبق لي الإطلاع عليها هو شخصٌ ينتج الأدب ، سواء أكان روائياً أو شاعراً أو مسرحياً ، و أعتقد أن الكتّاب في شتّى الحضارات يحتلون بشكلٍ عام موقعاً متميزاً و أكثر رفعةً من موقع "المثقفين".

إن للكتّاب حقاً مشروعاً في الهالة التي يستمدونها من الابتكار و من القدرة العقلية الإبداعية شبه المكرّسة (وغالباً التكهنية من حيث مداها و طبيعتها) ، فكأن هذا الحق لا يجوز للمثقفين الذين ينتمون وفقاً للأدب إلى فئة وضيعة طفيلية من "النقّاد". علاوة على ذلك تبنّى الكتّاب مع بزوغ القرن الواحد و العشرين عدداً أكبر و أكبر من الخاصيّات المعارِضة التي تميّز بها المثقفون في نشاطات كقول الحقيقة للسلطة ، و الشهادة على الاضطهاد و المعاناة و الحلول في موقع الصوت المعارض في الصراعات مع السلطة .

من الممكن أن تشمل مؤشرات دمج أحدهما بالآخر (المثقف و الكاتب) قضية سلمان رشدي بكل تشعباتها ، فقد شُكل العديد من المجالس و الهيئات الخاصة بالكتّاب و قد نُذرت لقضايا كالتعصب ، و حوار الحضارات ، و النزاعات الأهلية (كالنزاعات في البوسنة و الجزائر) ، و حرية الكلام و الرقابة على المطبوعات و غيرها ، الحقيقة و تسوية الصراعات (كما في جنوب أفريقيا و الأرجنتين و إيرلندا و مناطق أخرى في العالم) كما أن هناك دوراً رمزياً خاصاً يلعبه الكاتب كمثقف يشهد على تجربة البلد أو الإقليم و هو بذلك يضفي عليها هويةً شعبيةً تُحفر أبداً على الأجندة العالمية المطوّلة .

إن أسهل طريقة لتوضيح هذه النقطة هي أن نقوم ببساطة بتعداد بعض (و بالتأكيد ليس كل) من فازوا بجائزة نوبل مؤخراً ثم أن نتيح لكل اسمٍ منهم أن يُحدث في عقلنا حيّزاً رمزياً قد نراه كبرنامجٍ أو كنقطة الانطلاق للكاتب إلى نشاطه التالي الذي سيتبلور في نقاشاتٍ شاسعة البعد عن عالم الأدب . ثمة العديد منهم ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : نادين غورديمر ، كنزابرو أوي ، ديريك والكوت ، وول سوينكا ، غابرييل غارسيا ماركيز ، أوكتافيو باث ، إيلي ويسيل ، برتراند راسل ، غونتر غراس و ريغوبيرتا منتشو.

هناك حقيقةٌ أخرى سادت المئة و الخمسين عاماً المنصرمة و قد رعت باسكال كازانوفا في عرضها في كتابها الشامل "جماعة الأدب العالمي " و مؤداها أن منظومةً عالميةً أدبية تتطوّر و تكتمل بنظامها الأدبي الخاص من حيث معدّل تقدّمها و مجموعة مبادئها و قواعدها و عالميتها و قيمها الاستهلاكية .

تتضح فعالية هذه المنظومة على ما يبدو في إفرازها لنماذج الكتّاب الذين تتحدّث باسكال عن انتمائهم لفئات مختلفة من الشخصيات المتشابهة و المتناقضة و القابلة للفهم و التفسير ، و هي تميزهم أفراداً كما تصنفهم ضمن منظومةٍ تشير إلى أنها شديدة الفعالية عالمية و استهلاكية إلى درجة ما . و تسعى باسكال أن تبرهن على أن هذه المنظومة القوية السائدة يمكنها أن تتقدّم إلى درجة أن تحفز نوعاً من الاستقلال عن كتّابها أنفسهم – كما في حالتي جويس و بيكيت- الذين لا يخضعون في لغتهم و قواعد التهجئة التي يعتمدونها إلى القوانين الخاصة بحالة أو بمنظومةٍ معينة .

رغم أنني أكنّ احتراماً كبيراً للإنجاز الكلّي لكتاب كازانوفا ، إلا أن هذا لا يعني أنه غير متناقض ، إذ يبدو أنها تريد القول أن صناعة الأدب ضمن منظومةٍ عالمية تتمتّع بنوعٍ من الاستقلال التام عنه ، تضعها في مكانٍ يبعد مسافات كبيرة عن الوقائع العامة للأعراف السياسية و الخطاب السياسي ، و يحظى ذلك المفهوم بقابلية نظرية لِيُطبّق عليها عندما تعبر عنها كازانوفا بالصيغة التالية :

مساحة أدبية عالمية لها قوانينها التأويلية الخاصة ، و جدلها الخاص من حيث العمل الفردي و الجماعي على حد سواء ، و مشكلاتها الخاصة فيما يتعلّق بالثقافات و اللغات القومية . لكن باسكال لا تذهب بعيداً لتقول كما قال أدورنو - و كما سأقول أنا أيضاً- أن كيفية الاحتفاظ بالاحتياجات الجمالية و الاجتماعية في كنف حالة من التوتر و التناقض ، هي إحدى السمات الدامغة للحداثة على مستوىً بالغ العمق . إنها لا تخصّص ما يكفي من الوقت لمناقشة السبل التي تبقي على الأديب أو الكاتب متورطاً - تجري تعبئتهم بغرض الاستخدام بشكلٍ متكرر- في النزاعات الحضارية الكبيرة التي ظهرت بعد انتهاء الحرب الباردة و ذلك في ما يختصّ بالمتغيرات السياسية الحاصلة في العالم حينذاك .

على سبيل المثال إذا نظرنا من هذه الزاوية إلى المناقشة التي دارت حول سلمان رشدي ، سنجد أنها لم تتحدّث عن الخاصيّات الأدبية المميزة لكتابه "آيات شيطانية" و إنما تمحورت حول إمكانية أن تكون هناك معالجةٌ أدبية لموضوعٍ ديني لم يقارب

المشاعر الدينية بأسلوب علني (بأسلوب يثير مشاعر المرء) . لا أعتقد بوجود إمكانية كهذه سيّما أن آية الله الخميني لم يتوانَ لحظةً عن إصدار فتواه بوضع الكتاب و مؤلفه و قرّائه ضمن خانةٍ معزولةٍ إلا عن النقاشات الدينية المسيّسة حول قضايا اجتماعية دينية كعدم احترام المقدّسات الدينية ، و الانشقاق عن الدين ، و التهديدات بالقتل حيثما كانوا .

لقد أدّى التأكيد - كان الكثيرون منّا في العالم الإسلامي قد أكدّوا على ذلك- على أنه لا يجوز حرمان سلمان رشدي من حرية التعبير كروائي إلى مناقشة حرية الأديب في الكتابة ضمن سياق الخطاب الذي ابتلع مسبقاً الاستقلالية الأدبية بكاملها و شغل مكانها (بالمعنى الجغرافي للكلمة).

لا حاجة للقيام بالتمييز الأساسي بين الكتّاب و المثقفين في ذلك المقام الأوسع نطاقاً ، فبقدر ما ينشط كلا الطرفين في حقلٍ اجتماعيٍ جديد يخضع لهيمنة العولمة (حتى أنصار فتوى الخميني يفترضون وجوده) يمكننا أن نناقش و أن نحلّل الدور الاجتماعي لهما معاً . و بطريقة أخرى للتعبير سوف نركّز على ما يشترك به الكتّاب و المثقفين من حيث تدخلهم في الحقل الاجتماعي .

أول ما نحتاج إليه هو أن نجري ملاحظةً موجزةً للسمات التقنية للتدخل الفكري في يومنا هذا . أود أن أجري مقارنةً بين إدراك جوناثان سويفت للتدخل الاجتماعي الفعّال في بدايات القرن الثامن عشر و بين إدراكنا نحن له ، و ذلك بغية الحصول على فهمٍ مشرقٍ للسرعة و النجاح اللذين بلغهما التواصل الاجتماعي و تبادل الآراء خلال العقد المنصرم . كان سويفت بلا شك كاتب المنشورات الأكثر إزعاجاً في عصره ، كما كان قادراً خلال الحملة التي قادها ضدّ دوق مارلبورو بين عامي ١٧١١ و ١٧١٢ على نشر أحد عشر ألف نسخةٍ من كرّاسته "قائد الحلفاء" في الشوارع في غضون شهرين أدى هذا إلى إذلال الدوق و إنزاله من عليائه ، لكنه لم يغيّر من البصمة التشاؤمية التي تركها سويفت (و التي تعود إلى عمله "حكاية مركب قديم"عام ١٧٠٤) إذ أن أعماله اتسمت بالوقتية كصفةٍ أساسية فلم تكن تصلح إلا لزمنٍ قصير و بالتحديد الزمن الذي كانت تدور حوله هذه الأعمال . طبعاً كان سويفت متأثراً بالنزاع الدائر بين ما هو غابر و ما هو حديث ، و قد تمتّع أدباءٌ من أمثال هوميروس و هوراس خلال هذا النزاع بالأفضلية على شخصياتٍ أدبية حديثة كدريدن نظراً للمناقب و المزايا التي يتمتع بها عصرهم و للأصالة التي ميّزت آراءهم الدائمة و العابرة للعصور .

لا تحظى هذه الأمور بالاعتبار في عصر وسائل الاتصال الالكترونية ، لأنه يمكن لأي شخص يمتلك جهاز كمبيوتر و إذناً بالدخول إلى شبكة الإنترنت أن يتصل خلال زمنٍ قصير بأعداد من البشر تتجاوز ما تمكّن سويفت من الوصول إليه ، كما يمكن لذلك الشخص أن يتطلّع إلى حفظ ما هو مكتوب بكميات تفوق التصوّرات . يتوجّب علينا أن نعدّل أفكارنا المحكية و المسجّلة تعديلاً جذرياً ، إذ لا يمكن أن نصفها بعد الآن بالوصف الذي بذل فوكو جهده ليخلعه عليها كمجرّد عقدين ماضيين من الزمن . حتى و إن كان المرء يكتب لصحيفة أو مجلة ، لقد ألحقت إمكانيات النسخ الرقمي (على الأقل نظرياً) و الزمن اللا محدود المتاح للحفظ ، ألحقت الخراب بمفهوم القرّاء الفعليين كما عارضت فكرة القرّاء الواقعيين . و قد حدّ هذا من قدرات الأنظمة على فرض الرقابة على المادة المكتوبة التي تُعتبر خطرة كما لم يعد بإمكانهم حظرها ، رغم أن هناك وسائل ليست متقنة كثيراً للحد من حرية المادة المطبوعة على الشبكة أو لتقليصها . حتى فترة قريبة نجحت السعودية و سوريا - على سبيل المثال- في حظر الإنترنت و البث الفضائي ، و يجيز البلدان مجالاً محدوداً على الإنترنت في الوقت الحالي رغم أنهما وضعتا في نهاية المطاف وسائل متطورة للمنع و التحريم بغرض المحافظة على التحكم بالمواقع المتاحة . و وفقاً لاتجاه الأمور قد أكتب مقالاً في نيويورك لصالح جريدةٍ بريطانية ، فيكون لذلك المقال فرصة كبيرة للظهور على شاشات الكمبيوتر عبر المواقع الفردية على الشبكة أو عبر البريد الالكتروني في الولايات المتحدة ، اليابان ، الباكستان ، الشرق الأوسط جنوب أفريقيا و أستراليا . لا يتمتّع المؤلفون و الناشرون إلا بقدرٍ ضئيلٍ من التحكم على ما يُعاد نشره و طبعه ، إن دهشتي مستمرة (كما لا أعرف هل أشعر بالغضب أم بالغرور؟) إزاء السرعة التي قد ينتشر خلالها ما أكتبه أو ما أقوله في مكانٍ ما إلى العالم برمته تقريباً لمن يكتب المرء إذاً ؟ ذلك أنه من الصعوبة بمكان أن نحدّد القرّاء بشيء من الدقة . أعتقد أن معظم الأشخاص يهتمون للوسيط الفعلي الذي ينقل المعلومة أو بالقرّاء المفترضين الذين يرغبون بالتوجه إليهم .

لقد اكتسب مفهوم المجتمع التخيلي بشكلٍ مفاجئ بعداً موضوعياً و واقعياً ، و قد توصلت بناءً على تجربتي الشخصية منذ عشر سنوات حيث بدأت أكتب لقرّاء عرب عبر وسيلة نشرٍ عربية ، إلى أن المرء يحاول أن يبدع و أن يتطور و يتواصل مع جماهير القرّاء ، إذ أن هذا الأمر يكتسب ضرورةً أكبر من تلك التي كانت زمن سويفت ،

الذي افترض بشكلٍ خاطئ تماماً أن الأشخاص الذين دعاهم برجال الكنيسة الإنكليزية كانوا في حقيقة الأمر مجموعة قرّائه الثابتة دوماً و المحدودة جداً .

لذلك يجب علينا جميعاً أن نعمل و نحن نضع نصب أعيننا فكرة الوصول المحتمل إلى عددٍ من القرّاء أكبر بكثير مما أمكن لنا أن نتصور منذ عقد مضى ، مع أن فرص المحافظة على أولئك القرّاء محفوفةٌ بالمخاطر لنفس السبب . إنّها ليست ببساطة رغبة تفاؤلية ، لكنها من السمات المميزة للكتابة اليوم و هذا ما يصعّب على الكتّاب أن يسلّموا بفرضيات شائعة و مشتركة بينهم و بين قرّائهم ، أو أن يفترضوا أنه سيكون هناك فهمٌ مباشر للإشارات و التلميحات .

ثمة غرابة نظراً لأن للكتابة في ظل هذا النطاق المتسع عاقبةً أبعد في مداها و أكثر استثنائيةً في خطورتها ، و هي أن تكون مدفوعاً إلى قول أشياء إما مبهمة تماماً و إما واضحة تماماً (فإن شعر المرء بكفاءةٍ فكرية و سياسية في نفسه ، عندها لا بد أن يتبنى الوضوح.) .

فمن جهة تسيطر ستٌّ شركاتٍ ضخمة من الشركات المتعدّدة الجنسيات و التي ترأسها حفنةٌ من الرجال على المصدرِ الذي يستقي منه العالم صوره و أنباءه ، و من جهة أخرى هناك المفكرون المستقلون الذين يشكّلون فعلياً مجتمعاً متطوراً ، و تفصلهم المسافات الطبيعية المادية لكنهم ينسجون علاقات متعددة مع عدد كبير من الجماعات الناشطة التي تتجنبها وسائل الإعلام الرئيسية ، و التي تختلف في ترتيبها و تنظيمها عمّا دعاه سويفت متهكماً بالآلات الخطابية . فلنتأمل المجال المؤثر من الفرص الذي تقدمه منصة المحاضرة ، الكرّاسات ، الراديو ، المجلات الدورية ، المقابلات الصحفية الاجتماعات الحاشدة ، منبر الكنيسة و الإنترنت ، علماً أنني لم آتِ على ذكر إلا القليل . إن من المعوقات الهامة حقاً تلك التي تعترض المرء عندما يدرك أنه من غير المحتمل أن يقوم برنامج "نيوز أوَر" على **PBS** أو "نايتلاين" على **ABC** باستطلاع رأيه ، و إن قام أحدهما بذلك ستكون مدة الاستطلاع دقيقة واحدة يتيمة . لكن بعد ذلك ستكون هناك مناسبات أخرى تأتي بنفسها ، و لن تكون في هيئة استطلاعٍ خاطفٍ للرأي ، و إنما ستقدم فترات زمنية مطولة .

إذن فالسرعة سلاح ذو حدّين . إن السرعة التي يتميز بها الأسلوب الشعاراتي المختزل هي أحد معالم الخطاب "الخبير"- التطرق المباشر إلى صميم الموضوع ، الصيغة المحكمة و المظهر العملي- و هناك سرعة الإجابة و الصيغة القابلة للاتساع ، و التي

يمكن للمثقفين و لمعظم المواطنين أن يستغلوها كي يقدموا وجهة نظر بديلة باستخدام تعابير أكثر تفصيلاً و تكاملاً .

إني أرى أنه بالاستفادة من المنابر المتعددة المتاحة (المنابر المتنقلة كما يسميها سويفت) ستخلق إرادة المثقف التلقائية المبدعة المتيقظة لهذا الأمر (أقصد هنا المنابر غير المتاحة أو التي يتجنبها من يحظون بالظهور التلفزيوني من خبراء و مرشحين سياسيين) إمكانية البدء بنقاشٍ أوسع و بحثٍ أشمل لا يجوز الاستخفاف بتقدير احتمالات التحرر و الانعتاق - و ما ينذر بها- التي يحملها هذا الوضع الجديد . سأضرب مثالاً بليغاً يوضح ما أرمي إليه ، ينتشر أربعة ملايين لاجئ من الفلسطينيين في أنحاءٍ مختلفة من العالم و يعيش عددٌ كبير منهم في مخيمات كبيرة مخصصة للاجئين في لبنان (حيث جرت مجازر صبرا و شاتيلا عام ١٩٨٢) و الأردن و سوريا و غزة و الضفة الغربية .

عام **١٩٩٩** قامت جماعة من اللاجئين الفلسطينيين الشبّان المتحلّين بالثقافة و المتمتّعين بروح الإقدام و الذين يقيمون مخيم الدهيشة قرب بيت لحم في الضفة الغربية بتأسيس "مركز الإبداع" ، الذي كان مشروع "عبر الحدود " أهم ما قدمه ، و قد تميز ذلك المشروع بأسلوبه الثوري في استخدام الكمبيوتر لنسج الصلات بين اللاجئين في المخيمات الرئيسية ، التي تفصلها حواجز جغرافية و سياسية بالغة الصعوبة . و بذلك تمكن الجيل الثاني من اللاجئين الفلسطينيين في بيروت أو عمان للمرة الأولى منذ أن شُتّت آباؤهم عام **١٩٤٨** من التواصل مع إخوانهم داخل فلسطين .

إني أجد بعض ما أنجزه المساهمون في المشروع عملاً استثنائياً لافتاً فعندما خفّفت إسرائيل من عمليات إغلاق الحدود قام قاطنو مخيم الدهيشة بزيارة قراهم الأصلية في فلسطين ، ثم وصفوا ما شعروا به و ما رأوه لغيرهم من اللاجئين الذين سمعوا عن تلك القرى لكن لم يسبق لهم رؤيتها و في غضون أسابيع بدأ يبرز تضامن فريد من نوعه في كل مرة كانت منظمة التحرير الفلسطينية و إسرائيل تشرعان ضمن ما يسمى بمفاوضات المرحلة النهائية بمناقشة قضايا اللاجئين و حق العودة ، التي شكّلت إلى جانب قضية القدس جوهر التصلّب في عملية السلام المتأزمة . لذلك شعر بعض اللاجئين الفلسطينيين بتفعيل وجودهم و إرادتهم السياسية لأول مرة ، مما أكسبهم حالةً شرعية تختلف نوعياً عن معارضتهم السلبية التي تحكّمت بمصيرهم قرابة نصف قرن .

في ٢٦ آب عام ٢٠٠٠ ، تم تدمير جميع أجهزة الكمبيوتر في الدهيشة ضمن عمل تخريبي سياسي لم يترك مجالاً للشك في أن هناك نيّةً في إبقاء اللاجئين على حالهم ، بما معناه أنهم لن يُتركوا ليغيّروا الواقع الذي أدّى إلى صمتهم هذه المدة الطويلة ، يمكننا بسهولة أن نضع قائمة بأسماء المشتبه بهم ، لكن من الصعب أن نتخيل أنه سيتم اتهام أحدهم أو اعتقاله . على كل حال بدأ قاطنو المخيم بإحياء مركز الإبداع على الفور ، و يبدو أنهم نجحوا إلى درجة ما .

تعادل الإجابة على التساؤل عن سبب تفضيل الأفراد و الجماعات للكتابة و الكلام على الصمت تحديد ما يواجهه المثقف و الكاتب على الصعيد الاجتماعي . و بطبيعة الحال سيؤدي تواجد أفراد و جماعات تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية و المساواة الاقتصادية - إذ أنهم يدركون أن (وفقاً لصيغة أمارتيا سِن) الحرية يجب أن تشمل الحق بمجال كامل من الخيارات التي تؤدي إلى التنمية الثقافية و السياسية و الفكرية والاقتصادية- إلى رغبة بالكلام و ليس بالصمت .

علينا أن نقول أنه بالنسبة للمثقف الأميركي المسؤولية أكبر والفرص عديدة ، و التحدي صعب للغاية ، ففي نهاية المطاف الولايات المتحدة هي القوة العالمية الوحيدة إنها تتدخل في مختلف أنحاء العالم تقريباً ، كما أن وسائل السيطرة لديها عظيمة جداً لكنها متناهية برغم ذلك.

إن دور المثقفين بشكل عام هو أن يكشفوا عن نضالهم و يوضحوه و أن يتحدّوا و يهزموا الصمت المفروض و الهدوء الذي يلف السلطة الخفية و الذي يجري إظهاره على أنه طبيعي ، يجب عليهم اقتناص سائر الفرص التي تتسنى لهم للقيام بذلك .

كأن هناك مساواة اجتماعية و فكرية بين هذا العدد الكبير من أصحاب المصالح النافذين ذوي الاستبداد الشمولي ، و بين الخطاب الذي يفاد به في تبرير أعمالهم و إخفائها و إضفاء هالة من الحيرة حولها ، كما يُستخدم في الوقت ذاته في منع الاعتراضات و التحديات المجابهة لهم .

في يومنا هذا تنتشر في العالم عبارات من نمط "السوق الحرة" ، "الخصخصة" ، "تقليص دور الحكومات"و غيرها من العبارات التي باتت تشكل عقيدة العولمة و مبادئها العالمية الزائفة ، إنها العناصر الرئيسية في الخطاب الذي يجري تصميمه بهدف إيجاد قبول و موافقة ضمنية . إنها جزء من سلسلة مترابطة تطلق هذه التعابير المركبة أيديولوجياً كـ :"الغرب" و"صدام الحضارات" و "القيم التقليدية" و "الهوية" (ربما

تكون هذه العبارات هي الأولى من حيث فرط استخدامها في القاموس العالمي اليوم)

لا يجري نشر العبارات كعوامل محرّضة على الحوار كما تبدو أحياناً ، بل على العكس تماماً إنها تُنشر بغية إخماد المعارضة و سحقها و تحقيق السبق أمامها كلما واجهت تلك المبادئ العالمية الزائفة أية مقاومة أو مساءلة .

يهدف هذا الخطاب المهيمن بشكل رئيسي إلى ترويج المنطق فاقد الرحمة المتعلق بطريقة الشركات في جني الأرباح ، و بالنفوذ السياسي على أنه الوضع الطبيعي للشؤون العامة .

يقبع خلف الاستعراض المستوحى من الرسوم المتحركة الذي يحيط بالحوار النشيط في ما يتعلق بالغرب و الإسلام مثلاً ، يقبع خلفه شتى الممارسات من النفاق و معاداة الديمقراطية و المكائد (نظرية الشيطان الأكبر أو نظرية دولة الشر و الإرهاب) التي تهدف إلى صرف الأنظار عن التجريد الحاصل للحقوق الاجتماعية و الاقتصادية في الواقع .

فمن جهة يحضّ هاشمي رفسنجاني البرلمان الإيراني على المزيد من الأسلمة كأسلوب للدفاع المضاد لأميركا ، و في الجهة الأخرى يعدّ بوش و بلير و شركاؤهما الضعفاء مواطنيهم من أجل حرب لا هوادة فيها ضد الإرهاب الإسلامي و دول الشر و هلمّ جرّا .

لقد نُقلت الواقعية و قرينتها الوثيقة العملانية من سياقهما الفلسفي الحقيقي في أعمال بيرس و ديوي و جيمس ، ليتم إقحامها في العمل الإلزامي ضمن قاعة الاجتماعات التي تُصنع فيها القرارات الحقيقية في ما يتعلق بالحكومة و بالمرشحين الرئاسيين (وفقاً لتعبير غور فيدال).

بقدر ما يتوهم المرء بالانتخابات ، إنها حقيقة مرّة تلك التي تظهر أن الانتخابات لا تنتج الديمقراطية و لا تؤدي إلى نتائج ديمقراطية بشكل آلي . فلتسأل أي مواطن من فلوريدا .

يمكن للمثقف بدلاً من ذلك أن يقدم تفسيراً نـزيهاً لكيفية التركيب العقلي لكيانات كالهوية و التقليد و الأمة ، و التي يجري تصويرها في هيئة ثنائيات متعارضة تتبنى مواقف عدائية حتمية تجاه أحدها الآخر . تحدّث بيير بورديو و زملاؤه بشكل لافت عن الليبرالية الجديدة لدى إدارتي كلنتون و بلير - و قد اعتمدت على التفكيك المحافظ للإنجازات الاجتماعية العظيمة (على أصعدة الصحة و التربية و العمل و الأمن

الاجتماعي) لنظام الرعاية الاجتماعية خلال عهد تاتشر- ريغن- التي شيّدت نظاماً متناقضاً ، و شكّلت ثورة رمزية مضادة تشمل ذلك النوع من تمجيد الهوية الوطنية الذي تحدثت عنه سابقاً ، يقول بورديو :

إنها أعمال إدارة محافظة رغم ارتدائها حلّة تقدمية ، إنها تسعى إلى إحياء النظام السابق و استعادة بعض من مظاهره الأكثر قِدماً (بشكل خاص المظهر المتعلق بالعلاقات الاقتصادية) ، مع ذلك فهي تضفي على بعض الارتدادات و الانكفاءات و التنازلات صفة الإصلاحات الناضجة و الثورية و التي ستقود إلى عهد جديد كامل يتميز بالرخاء و الحرية . سنجد أمثلة على هذا في اللغة المستخدمة للكلام عن الاقتصاد الجديد المزعوم ، و في الحديث التمجيدي الجاري حول شبكات التلفزة و الإذاعة و الإنترنت .

وضع بورديو و زملاؤه كتاباً ألّفوه سوية ليذّكروا بالضرر الذي تسبب به هذا النكوص ، و عنونوه بـ :" شقاء العالم" (تُرجم إلى الإنكليزية عام **١٩٩٩** تحت عنوان "وطأة العالم" :المعاناة الاجتماعية في المجتمع المعاصر) ، و الذي هدف إلى جذب اهتمام السياسيين إلى ما أخفاه التفاؤل المضلّل للخطاب الحكومي في المجتمع الفرنسي لذلك يلعب هذا الصنف من الكتب دوراً فكرياً مضاداً يهدف إلى - و أعود هنا إلى الاقتباس عن بورديو- : "إنتاج و نشر وسائل الدفاع ضد سيطرة رمزية يتزايد اعتمادها على سلطان العلم " أو على الخبرة الواسعة أو على المناشدات و الاستغاثات بالوحدة و الكبرياء و التاريخ و التقاليد الوطنية ، و ذلك لإكراه الشعب و دفعه على الخضوع و الإذعان . من الواضح أن الهند و البرازيل تختلفان عن بريطانيا و الولايات المتحدة ، لكن لا يجب أن تحجب حالات التباين المذهلة غالباً في الثقافة و الاقتصاد أوجه الشبه و التماثل الأشدّ إذهالاً التي يمكن أن نلحظها في بعض الطرق المتبعة في الحرمان و القمع - و غالباً في الهدف منها أيضاً- التي تُخضع الشعب و تجبره على التبعية و الخنوع .

لا بدّ لي أن أضيف أن المرء ليس مضطراً دائماً إلى تقديم أفكار عميقة و مفصّلة عن العدالة من أجل أن يخوض حرباً فكرية ضدّ الظلم و الإجحاف ، طالما أن هناك مستودعاً دولياً جيد التزويد بالاتفاقيات و البروتوكولات و القرارات و المواثيق التي على السلطات الوطنية أن تمتثل لها إذا كانت هذه هي الطريقة إلى ذلك . إني أعتقد ضمن نفس السياق أنه من الغباء أن نتخذ موقفاً فعالاً ما بعد حداثي (كالذي اتخذه

ريتشارد رورتي و هو يشترك في عراك وهمي مع شيء غامض يدعوه مزدرياً : "اليسار الأكاديمي") فنقول - عندما نواجه قضايا كالتطهير العرقي ، أو الإبادة الجماعية كالتي تحصل اليوم في العراق ، أو أياً من الشرور : التعذيب و الرقابة و المجاعات و الجهـل (معظمها نتائج لأعمال بشرية و ليست إلهية)- أن حقوق الإنسان "مسألة حضارية" ، لذلك فهي تُنتهك عندما لا تحظى بالشرعية الحقيقية التي يضفيها عليهـا مسـاندون صريحون لها من أمثالي ، و الذين يجدونها حقيقيةً أصيلةً بقدر أي شيء آخر يمكن لنـا مصادفته .

يقبض سائر المثـقـفين على فهم كافٍ أو إجمالي للنظام العالمي (أتوجه بجزيـل الشكر للمؤرخين الذين كتبوا عن العالم و عن الأقاليم المختلفة و منـهم : إمانويـل والرشتاين ، أنور عبد الملك ، جي إم بلوت جانيت أبو الغود ، بيتر غـران ، علـي مزروي و وليام ماكنيل) لكن لدى المواجهة المباشرة معه في إحدى المناطق المحـددة سينشب النقاش و النـزاع (كما في سياتل و جنوى) حيث من الممكن الظفر به .

ثمة أعمال ممتازة تتمحور حول تأريخ القضايا التي أتحـدث عنـها ، و نجـدها في الأعمال المتنوعة لبروس روبنـز و المشاعر العالمية : العالمية في محنة (١٩٩٩) ، تيموثي برينان و العالم كوطن : العبرقومية الآن (١٩٩٧) و نيل لازاروس و القومية و التعاطي الحضاري في عالم ما بعد الكولونيالية (١٩٩٩) ، كتبٌ تشير بنيتها المنسوجة بعناية و وعيها لذاتها الإقليمية إلى الحس النقدي السليم (و المقاوم) الذي يمتلكه المفكرون في ما يخص العالم الذي نعيش فيه اليوم ، إنها أجزاءٌ مترابطة من لوحـة أشمـل تشـكلها أعمالهم و أعمال غيرهم . إنهم يضعون مصوراً للتجارب التي لم يكن بالإمكان تمييزها أو رؤيتها منذ عقدين ، لكن الآن على أنقاض الإمبراطوريات الكلاسيكية و بعد نهاية الحرب الباردة و انهيار المعسكر الاشتراكي و تفتت جبهة عدم الانحياز ، الآن في ظـل الحوار و الجدل الناشئ بين الشمال و الجنوب في عصر العولمة لا يمكن استثناؤها مـن الدراسات الثقافية ، أو من الحدود اللامادية - نوعاً ما- للعلوم الإنسانية.

لقد ذكرت بضعة أسماء فقط لأنوّه إلى إسهاماتهم العظيمة ، و لأثب مباشـرةً إلى بعض المجالات الملموسة التي تحظى بالاهتمام الجماعي و هنا سأستشهد للمرة الأخيرة ببورديو الذي يرى أن هناك إمكانية لـ "الاختراع المشترك " : " لا بد مـن تـرميم صرح التفكير النقدي بكامله ، و لا يمكن إجراء هذا الترميم مثل ما اعتقد الـبعض في الماضي فاعتمدوا على مفكر عظيم بمفرده ليكون المعلم الموقر الذي فُطر على المعرفة و

الموهبة أو أنهم اعتمدوا على المتحدثين الرسميين باسم جماعة أو مؤسسة يُفترض أنها تعبّر عمّن لا صوت لهم ، نقابة ، حزب و هلمّ جرّا ... و هنا بالضبط يمكن للمفكر الجماعي [و هو الاسم الذي يطلقه بورديو على الأفراد الذين يؤلف حاصل بحثهم و عملهم على مواضيع مشتركة نوعاً من التعاون الخاص] أن يقوم بدوره الذي لا يُعوّض في المساعدة على تهيئة الأرضية الاجتماعية للإنتاج المشترك لليوتوبيا الواقعية ."

إني أسعى من تلك القراءة إلى التأكيد على غياب أية خطة رئيسية أو برنامج عمل أو فكرة عامة عن العمل الذي يمكن أن يؤديه المثقفون ، و أريد أن أؤكد أنه لا وجود لغاية يوتوبية يمكن أن نقول أن التاريخ الإنساني يتجه إليها حالياً . لذلك يخترع المرء الأهداف بعيداً عن واقع الحال (و أستخدم هنا كلمة يخترع بالمعنى اللاتيني الحرفي لها ، و الذي يستخدمه البلاغيون للتأكيد على إعادة الاكتشاف أو التجميع من طرق استخدام سابقة، و يخالف المعنى هنا المعنى الرومانسي لكلمة اختراع على أنه شيء تخلقه من لا شيء) و هو بذلك يضع فرضيةً عن أحوالٍ أفضل من الوقائع التاريخية و الاجتماعية المعروفة .

لذلك يؤدي هذا إلى دعم الأداء الفكري على جبهات شتّى و ضمن أماكن و أشكال متعددة ، مما يبقي على حس المعارضة و حس التورط في المشاركة على المسرح . و من هنا يمكن للأفلام و الصور الفوتوغرافية و الموسيقا إلى جانب مختلف فنون الكتابة أن تشكّل مظاهر هذا النشاط .

حريٌ بنا نحن كمثقفين ألا نظهر واقع الحال و نشرحه فقط بل أن نتبيّن إمكانيات التدخل الفعّال أيضاً ، و سواء عندها إن قمنا به بأنفسنا أو قبلنا بقيام آخرين بذلك ، أولئك الذين سبقونا إلى المباشرة بهذا العمل ..المثقف كرقيب حارس . إن الصنف القديم ضيّق الأفق (أنا مثلاً أخصّائي في الأدب و مجال عملي هو الأدب الإنكليزي في بدايات القرن السابع عشر) ينأى بنفسه جانباً ، و يبدو بصراحة تامة أنه مملٌ و محيدٌ لعدم ضرورته ، يجب علينا أن نزعم أنه رغم عدم استطاعة المرء أن يعمل أو أن يعرف كل شيء إلا أنه لا بدّ أن يتمكن دائماً من استيضاح العناصر المكونة للنزاع أو التوتر أو المشكلة التي يعالجها ، و التي يمكن توضيحها ديالكتيكياً (عن طريق الجدل) ، كما أنه لا بدّ سيدرك أن غيره من الأشخاص يحظون بحصةٍ و عملٍ مماثلين في ذلك الإيضاح الموضوعي المشترك للحقيقة .

لقد عثرت على مثالٍ حيٍّ مقنع على ما أرمي إليه في كتاب آدم فيليبس الأخير " ديدان داروين" ، و الذي يبيّن فيه أن الاهتمام الذي رافق داروين طيلة حياته

بديدان الأرض المتواضعة كشف عن مقدرتها على التعبير عن تقلبية الطبيعة و سيرورتها دون أن تكون تلك الديدان قد أدركت كامل الأمرين بالضرورة ، و بذلك يستبدل داروين في عمله على الديدان : "أسطورة دفاعٍ عن الحياة بأسطورة خلق ."

هل هناك من طريقةٍ لا مبتذلة لإطلاق التعميمات المتعلّقة بالمكان و الشكل اللذين تجري من خلالهما تلك الحالات من النضال الآن ؟

سأكتفي بالتحدّث موجزاً عن ثلاثٍ من الطرق تقبل كلٌّ منها بعمقٍ التدخّل و الاجتهاد من الناحية الفكرية.

الطريقة الأولى تتمثّل في مواجهة اختفاء الماضي و اتخاذ الاحتياطات المسبقة لذلك ففي ظلّ المتغيّرات المتسارعة و إعادة صياغة التقاليد و عمليات التهذيب المبسّطة التي تُجرى على التاريخ تحتلّ هذه المسألة قلب الصراع الذي وصفه بنيامين باربر (و لو أنه يمرّ على هذه المسألة برشاقة) بـ : " الجهاد في مواجهة عالم مكدونالدز". على المثقفين أن يقدّموا سرداً بديلاً و نظرةً أخرى للتاريخ تختلف عن تلك التي يقدّمها المدافعون المتحمّسون للذاكرة الرسمية و الهوية القومية ، الذين ينصرفون إلى العمل بانسجام و توافق مزيفين فيتلاعبون و يطلقون مزاعم مشوّهة يُسكنوها بالأرواح و الشياطين عندما يتناولون شعباً غير مرغوبٍ به أو يُراد استثناؤه أو أنه يجمع بين الأمرين كما ينشرون الأناشيد الطنّانة المصطنعة محاولين إزالة كل ما سبقهم . و منذ نيتشه على الأقل بات بإمكاننا أن نعتبر عملية كتابة التاريخ و استجماع الذاكرة كأساسٍ جوهريٍ للسلطة ، فهي توجّه استراتيجيتها و تضع المخطّطات لتقدمها و ارتقائها . فلتتأمّل مثلاً الاستغلال المروّع للمعاناة السالفة نتيجةً للمحارق التي تصفها روايات المؤرخين من أمثال توم سيجيف و بيتر نوفيك و نورمان فنكلشتاين ، و سترى أنه ضمن نطاق التعويض و إعادة الاعتبار التاريخي يجري حشر تجارب تاريخية هامة من التشويه المؤذي و فصم العرى و النسيان في زاوية الرفض أو الاستخفاف نظراً لأنها لا تحظى بدعم إحدى جماعات الضغط المسيطرة .

إن ما نحتاج إليه اليوم هو كتابة واقعية معتدلة للتاريخ الخالي من السموم ، كتابة تبيّن تعدّدية التاريخ و تعقيداته و لا تفسح مجالاً للاستنتاج بأنه يسير قدماً بشكلٍ مجردٍ وفقاً لقوانين تهبط من السماء أو يسنّها ذوو السلطة و النفوذ .

يجب أن يؤدي العمل الفكري للمثقف إلى تشييد ميادين للتعايش و ليس للمعارك .

يمكن لنا استخلاص دروسٍ هامةٍ من عملية مواجهة الاستعمار ، التي - رغم

أهدافها النبيلة – لم تمنع غالباً نشأة أنظمة قمعية وطنية كبدائل عن الأنظمة الكولونيالية كما أن الحرب الباردة استولت على العملية بشكلٍ مباشرٍ تقريباً رغم الجهود البلاغية التي بذلتها حركة عدم الانحياز، و قد أدّت الصناعة الاصطلاحية التقليدية المصطنعة إلى تقزيمها و تسخيفها و تحويلها بكل بساطة إلى نــزاعٍ غامضٍ بين خصومٍ متخالفين .

و ثالثاً ينبغي لعملنا ضمن النقاشات الخلافية الدائرة حول العدالة و حقوق الإنسان و التي يشعر الكثير منا أنه بات طرفاً فيها ، أن يشتمل على عنصرٍ رئيسيٍ ألا و هــو التأكيد على أهمية إعادة توزيع الموارد ، مما يودّي إلى دعم هذه الحقيقة النظرية الملحّــة أمام ذلك الحشد الهائل للنفوذ و رأس المال الذي يشوّه الحياة الإنسانية بهذا الشــكل . إن السلام منوطٌ بالمساواة ، لا بدّ من الإسهاب في التأكيد على هذه القيمة الفكرية و في إثباتها و تعزيزها . و يتجلّى الإغواء الذي توحي به هذه الكلمــة (الســلام) في إحاطتها بل و إشباعها بالتوافق المتملّق و المديح الإجماعي و التأييد الوجداني.

تمعن وسائل الإعلام العالمية في وصف كل هذه الأمور وتزيينها دونما نقــد (كمــا كانت الحال في الحروب الأخيرة الحائزة على الموافقة والتصديق في العراق وكوسوفو) ثم تبثّها دونما اعتراضٍ إلى جماهير واسعة لا يشكّل السلم و الحرب بالنســبة لهــا إلا مواضيع تبعث البهجة في النفس و تصلح للاستهلاك المباشــر. إن تحليــل كلمــات كــ:"الحرب" و "السلام" إلى عناصرها الأولية ، و استعادة ما جــرى شــطبه مــن عمليات السلام التي يتحكّم بها أصحاب النفوذ ، و إعادة الواقعية المفقودة إلى موقعها في مركز المسائل و القضايا ، إن كل هذا يتطلّب منا شجاعةً و عملاً و معرفةً أكــبر بكثير مما تستلزمه كتابة مقالاتٍ تعبّر عن رأينا لصالح "الأحرار" (سأذكر هنا الكاتب الكندي ميشيل إيناتيف) الذين يحضّون على تدميرٍ و إفناءِ أعظم للحضارات البعيدة . لربما يتمكّن المثقفون من أن يشكلوا نوعاً من الذاكرة المضادة التي تنتج خطابها المضاد الذي لن يتيح للضمير أن يشيح بنظره أو أن يسقط فريسةً للنعــاس. و كمــا قــال الدكتور جونسون : إن أفضل علاج هو أن تتخيّل الشخص الذي تتناوله في بحثك (و في هذه الحالة الشخص الذي على رأسه تتساقط القنابل) يقرأ ما كتبتَ في حضرتك .

و كما هو التاريخ لا ينتهي أو يكتمل ، كذلك هي حــال بعــض المتناقضــات الديالكتيكية فهي لا تقبل التسوية و لا يمكن تجاوزها أو طيّها و حجبها بنــوعٍ مــن التركيبات الجمعية الأرفع و الأنبل .

أقرب مثالٍ يخطر لي على بال هو النـزاع الدائر حول فلسطين ، و الذي لا يمكن فضّه (كما آمنت و ما زلت) ببساطة عن طريق تسويات تقنية و تعديلات جغرافية لا تنتهي بحيث تمكّن الفلسطينيين من العيش على ٢٠% من أرضهم التابعة كليّاً لإسرائيل المطوقة لها .

من جهةٍ أخرى ، قد لا يجوز أخلاقياً أن نطلب من الإسرائيليين التخلّي عن كامل فلسطين السابقة (إسرائيل الحالية) ليتحوّلوا إلى لاجئين كما هم الفلسطينيين الآن . لقد بذلت قصارى جهدي فلم أتوصّل إلى قرارٍ حول هذا المأزق ، إنها ليست قضيةً هينةً يتواجه فيها الحق مع الحق . فحرمان شعبٍ كاملٍ من أرضه و تراثه و القيام بذبحه و خنقه (و هذا ما تفعله إسرائيل منذ أربعةٍ و ثلاثين عاماً من الاحتلال) لا يمكن أن يكون حقّاً . لكن اليهود ينتمون إلى مجتمعٍ عانى الكثير ، و قد حملوا معهم تركةً من المآسي العظيمة . لا يعني ذلك أنني أوافق زئيف ستيرنهيل في أن احتلال فلسطين كان ضرورياً إنها حماقةٌ تؤذي مشاعر الفلسطينيين المتألمين حقاً و هي مأساوية بطريقتها الخاصة .

إن تخطّي التجارب التي لا يمكن تجاوزها يتطلّب من المثقف الشجاعة لقول ما نواجهه وفقاً للطريقة التي انتهجها أدورنو خلال عمله على الموسيقى ، فقد أصرّ على أنه لا يمكن التوفيق بين الموسيقا الحديثة و بين المجتمع الذي أنتجها ، لكن من الممكن لها بشكلها و مضمونها اللذين تم إبداعهما بقوّة و (غالباً) بيأس أن تكون شاهداً صامتاً على اللا إنسانية التي تملأ الدنيا . يقول أدورنو أن أي دمج للعمل الموسيقي الفردي بمحيطه الاجتماعي هو دمجٌ مزيّف .

سأختتم مقالتي بفكرةٍ مؤدّاها أن الهدف المؤقت للمثقف هو ميدان المبادىء العنيدة المقاومة التي يصعب إرضاؤها ، و للأسف لا يمكن للمرء أن يتخلّى عن الحلول أو أن يبحث عنها في هذا الميدان ، لكن في ذلك العالم المنفي المحفوف بالمخاطر فقط يمكن له أولاً و بحق أن يدرك صعوبة ما لا يمكن إدراكه ، و عندها يتقدّم ليجرّب بأية حال .

ترتيب المواضيع

عن " شعراء الواقع": أدباء القرن العشرين الستة. للكاتب جي هيلليس ميللر ، إصدار دار جامعة هارفرد.

تناول جي هيلليس ميللر موضوعاً هائلاً في كتابه " شعراء الواقـع " ألا وهـو " استعادة الذاتية " ، التي أقنع وأثار الإعجاب في إشارته إلى فقدالها في "اختفاء الله" عام (١٩٦٣).

يشكل المؤلّفان تاريخاً باطنياً للانتقال من الأدب الرومانسي إلى الأدب الحـديث ، وهو يبدأ من خلال هذين العملين بـ "ترتيب الأفكار" الذي يؤلف عالماً خاصاً بكل كاتب ، وقد حافظ على عدد من الأدباء يتراوح من خمسة إلى سـتة (في الكتـاب الأول دي كوينسي ، إميلي برونتي ، آرنولد ، براوننغ وهوبكنـز ، وفي الثاني كونراد ييتس ، تي اس اليوت ، ديلان توماس ، والاس ستفنـز و وليام كارولز وليامز)

وهو بذلك يحقق توازناً بارعاً بين تصوير استثنائي من جهة و وحدة موضـوعية عامة تربط بين أولئك الأدباء من جهة أخرى.

الذاتية هي معنى واضح يلازم إدراكنا ، إنها معنى متاح هنا والآن وليس هناك وفي عالم بعيد . يظاهر ميللر بأن التراث الرومانسي للقرن التاسع عشر يقود مباشـرة إلى مأزق لا يطاق – لعلنا نجد في الأعمال التراجيدية الأخيرة لـ : آرنولد و هوبكنـز خير أمثلة على ذلك – يتمثل في المواجهة بين "ذات" منعزلة وبين عالم متفسـخ قـد انسحب منه الله والذاتية.

يرى ميللر أن شعراء الواقع في القرن العشرين أدوا عملهم في ضوء هـذه الخلفيـة الصارمة ، و يستحق كونراد الشكر الجزيل فقد عادت عليه شجاعته الخالصة بموهبـة أخرى شعرية ، وهو يصور سخافات الروح الرومانسية فيصبح عدمياً يظهر عدم قابلية الثنائية الرومانسية للاستمرار ليس فقط بسبب اختفاء الله خالقها ومبدعها ، بل بسبب موته أيضاً بالرغم من الغايات العملية. ويظهر ميللر أن كـونراد يـرى في الظلمـة " الجوهر " المتماسك للواقع والظلمة وهي عبارة عن "الإفناء لمنشأ (العالم)" تتحـول لتصبح هي الأخلاقيات والحضارة الحقيقية فيه.

يقهر كونراد ما يبدو مستحيلاً وذلك برؤيته للعالم كما هو بنوعيته الصرفة التي لا تحتاج إلى تفسير ، لكن ثمة ضريبة لهذه الرؤية نتيجة عدم الرضى عن إدراك التناقض في

الأبعاد الذي يتوجب أن يكتنف تقديم أفكار اصطلاحية كالمكان والزمان والمادة والروح.

يقع الإنسان الذي يعيش في كلا البعدين ضحية لثنائيات متعارضة وربما مستحيلة ، ويختار ميللر في تجسيده لهذه الرؤية البروفيسور بالغ الحدة في تقشفه الذي لم يتمكن في " العميل السري ": " من أين يحجز موقعاً إلى جانب الرجال الذين يدعون ثقافتهم الخاصة ، كما لم يستطع أن يأتي العالم بظلمة الجنون واليأس لتكون قاعدة لمدينة إنسانية قابلة للحياة ."

تداعب نظرة البروفسور " صور الدمار والخراب " ، وهي نظرة سبرت أغوار العدمية بدقة فائقة بغية ابتكار انطلاقة جديدة تُلزم الآخرين. يبدأ ميللر ضمن نزعة الأدب الحديث التي تستند إلى المثال الذي يبين شجاعة كونراد كما تعتمد على المعنى الذي أعطاه للظلمة إذ أن الذات والموضوع يتبددان فيها ، يبدأ بإدراك ماهية جدل التجسد وفقاً للتعبير الذي لا يضاهى لآربي بلا كمور فيما يتعلق بـ آنا كارنينا ويبدو له أن كلاً من المؤلفين يبدأ من " نقطة انطلاق " تشمل كلا الأمرين : إدراكاً خاصاً للواقع ، بالإضافة إلى فترة من الوعي الذاتي الفطري. ثم يجترح ميللر طريقته عبر سلسلة من الحلول النسبية إزاء مشكلة ترويض النظرة إلى العالم ، وفي النهاية يعود إلى حيث بدأ ، أي إلى المعنى الذي أضفاه على الواقع والذي يثريه اشتراكه فيه ، وهكذا يجسد شعره الواقع لأن هذا الواقع يبدو الآن كبعد لـ " الوجود المشترك " ، حيث تبرز النظرة والعالم ويبرز أيضاً جوهر أساسي انطلاقاً من هنا. وقد تحققت رغبة ييتس المبكرة بتغيير هيئة العالم الحالي عندما أدرك أن ذلك اللجوء إلى قيم دنيوية أخرى لا بد أن يفشل ، طالما أن ما هو فوق طبيعي ملازم لكل ركن من أركان الحياة.

يعتمد إليوت على إف إتش برادلي في " الماورائيات الأحدية " التي تسود قصائد مثل "بروفروك" ، وتنتهي تلك الماورائيات إلى النسخة الفردية المستقلة لـ " المثال الحقيقي لقانون الله الوجودي" ، وهذا الاكتشاف هو النسخة المسيحية لاستعادة الذاتية كما يرى ميللر الذي تمكن لدى وصوله إلى وليامز (بعد فصل قصير تحدَّث فيه عن ديلان توماس ومرور ساحر على والاس ستفنز) من إظهار الحدود المشتركة بين شعر وليامز والواقع ، إن معنى الشعر هو الواقع فالشعر يحتوي معنى الواقع ، إن واحدهما يلتحق بالآخر وينتجه. لقد تناول ميللر في عمله على كل حالة من الحالات الأعمال الكاملة للكاتب على أنها شبكة مترابطة أو أنها "مخطط الأثير " ، كما يدعوها

ستيفنـــز ، لذلك يستحيل أن نمنح الغنى الرائع الذي ميز شرحه وتفسـيره حقـه إلا عندما نقول أنه مكننا من فهم كيفية إسهام عبارة كعبارة إليوت " الترابط الموضوعي " و مفهوم غامض كالأسطورة المركزية عند ييتس والتعريف المجازي الـذي أعطـاه توماس للموت واحتضان ستفنـــز لــ " مارد من العـــدم " بالإضـافة إلى " البريـق المحجوب للضوء " عند ويليامز ، لقد مكننا من فهم كيفية إسهامها مجتمعة في بحـث الكاتب الذي تضفي عليه صورته أيضاً ، كما وضح لنا باختصـار كيـف تعكـس الجوانب الخاصة المنفردة - من عالم الأديب - جوهر ذلك العالم ، وهي حقاً الجوانب الاقتصادية لواقع فائق الترتيب.

من المناسب تماماً أن يتطابق أسلوب ميللر النقدي مع نظرته للأدباء الذين تناولهم في بحثه ، ولم يكن متوقعاً أن يندرج ذلك التطابق تحت عنصر المفاجأة بل كان هنـاك أسلوباً وحيداً في الثناء على الحتمية الرزينة التي احتواها كلامه ، مع ذلك من المفاجئ جداً أن يصبح كتاب "شعراء الواقع " نقطة تحولٍ رئيسية لا يمكن إنكارها في النقـد الأميركي. ويتبدّى التجديد في عمل ميللر في أمرين ، أولهما أنه لا يلجأ إلى التحليـل المضني لقصائد مستقلة بذاتها (لا أقصد من هذا أن إدراك ميللر لقصائد أولئك الشعراء غير دقيق مطلقاً بل على العكس لقد تجاوز معظم النقاد في دقته وحساسيته في السيطرة على الشعر) ، و ثانيهما أنه لا يهتم بالتفاصيل القوية المألوفة سواء على صعيد السـيرة الذاتية أو النفـسية أو العالمية (كعالِم).

رغم ذلك لا يعطي الكِتاب انطباعاً بأنه عمومي إلى حد ميؤوس منه ، أو بأنه نتاج لعقل يراوح في الفراغ ، كما أن ميللر ليس بثائر فوضويٍ ، فهو يبدو ضالعاً في حوار منضبط مفيد مع شعرائه معتمداً على تبصرهم في تقوية بصيرته ، وباسطاً لهم يد العون بغية أن يعينوا أنفسهم .

إنه لا يركز في أسلوبه – مثله في ذلك مثل الأدباء الذين يتناولهم في بحثه – علـى قصيدة قائمة بذاتها على أنها مسألة بسيطة تتواجد على مسافة كافية من القارئ ، لكنه عوضاً عن ذلك يركز عليها ليراها كائناً يتوسط بقية علم الكاتـب ووجهـة نظـر الناقد.لا تنتصب القصيدة بعد الآن في منتصف زمان ومكان مطلقين لتستدعي انتبـاه الناقد المدقق ، هذا يعني – كما يقول ميللر عن ويليامز – أنه قد جرى الانتفاع بـــ " اكتشافات آينشتاين ": "ليس هناك إلا نقاطاً مركزية موضعية لا تحصى ، وهي جميعاً تتساوى في فعاليتها ، وترتبط بشكل معقد بالزمان والمكان والمادة ، كما أن كلاً منها يبث طاقته الخاصة الفريدة لتعديل طاقات النقاط الأخرى "بما أن شعر الواقع "يسـلط

الأضواء على حياة الأشياء " فإن عقل الناقد سينتقل بحرية ضمن الحياة المشتركة (العالم) لقصائد الشاعر.

يبدو أن ميللر على قناعة أنه يتعين على الناقد أن يحول الزمان المطلق (على سبيل المثال عندما كتب إليوت "الأرض القاحلة" أو سنجده في سلسلة أعمال ييتس في "صياد السمك ") ثم يدرجه في بعد مكاني يكونه عمل الكاتب بأكمله ، مما يفسح المجال أمام سمات جغرافية دقيقة للعالَم الشعري كميدان للعمل يتمحور حول جدل الإبداع " المشع " المفعم بالنشاط عند الشاعر.

من ناحية أخرى النقد عند ميللر هو نقد تصويري في جوهره وليس وعظياً أو تزمتياً ، لأن ميللر -كالشعراء الذين يبحث في عملهم - يركز اهتمامه على الشعر الذي يعيش في واقع مسكون بالعقل المبدع إذ يمكن تخيله كـ "مفكر لا يتوقف عند قناعات نهائية " في عالم لا يتصل بعلم الوجود الكلاسيكي. " تتواجد جميع الأشياء في زمن واحد وفي عالمٍ واحد ، ورغم أنها قد تتفاعل فيما بينها لكنها لا ترتبط بعلاقة سببية."لقد تم الاستغناء عن مفهوم السلسلة السببية ليحلّ محلّه مفهوم شخصي عن شعر يعيش نشاطه الفعلي ليثبت أصالته.

أما في مجالات أخرى من الفكر المعاصر ، فقد أفسحت الحتمية السطحية الطريق أمام منظومة من الحركات التبادلية ضمن أسلوب كتابة واقعي متموج ، ومادي وليس أدبي. أعدَّ ميللر نقده ليعالج المهارات التي أدت إلى ما دعاه دانييل بيل بسقوط المسافات. إنه يميل بفكره نحو الرافضين للاتجاه الوضعي[٦] في الفلسفة الأوروبية ، وبشكل خاص الفينومينولوجيين (الظاهراتيين) منهم ، إلى جانب النقاد الأكثر فلسفة بين الأمريكيين.

أعتبر هذا مؤشراً على مصداقية التحرر والشمولية في استشرافه وميوله ، لا أريد أن أقول أنه مقتبس سطحي ومبتكر للنظم ، أو أنه مشوش يبحر في الرطانة ، فهو يبدو بالنسبة لي قد استوعب تماماً كما مارس تأثيره دون تطفل . ثمة شبه ملفت بين صياغة أفكار ميللر فيما يتعلق بشعرائه وبين – على سبيل المثال – فكر هوسرل وتلميذه جورجيس بوليت ، ويمكنني هنا أن أشير إلى بعض الأمثلة فقط لأظهر كيف أنه اتبع طريقة الظاهراتيين عندما اجترح عمله من عالم التجربة الحية.

هناك تناظر تام بين الانقسام الظاهراتي عند هوسرل وبين ما يشير ميللر إليه عن

---

(١): الفلسفة الوضعية: فلسفة وضع أسسها أوغست كونت ، تهتم بالظواهر والوقائع.

طريقة ستيفنــز في وضع العالم بين أقواس واعتباره متحرراً من مختلف أشكال التفسير الغنية ، وفي تجريد الواقع إلى نوعية صرفة أو إلى" مفهوم " خيالي ، هذا هو عمل العقل والخيال الذي دعى إليه ستيفنــز بقوله: " دعنا نرى الشيء عينه منفصلاً عن أي شيء آخر ، دعنا نراه بأشد نيران البصر توقداً ".

من جديد لدينا هنا مفهوم هوسرل الشخصي عن الذات المتسامية الذي يتألق ميللر عندما يفيد منه بعبقرية لغوية وهو يصف " التقليد " عند إليوت بأنه حالـــةٌ مثلـــى " تعيش حياتها الخاصة ، حياة مستقلة عن سائر الذوات المنعزلة ، رغم أنهـــا تـــشبه بسماتها كثـــيراً ذاتاً منعزلة تمتد بشكلٍ واسع ".

فمن بوليت يستنبط ميللر مهارة تصور الزمن الإنساني ككائن مكاني يتخذ شكل الدائرة ، التي يستولي عليها عقـــل المؤلف ويملؤها (قد يستعيد المرء كلمات كيـــتس الجديرة بالذكر: "يُعرّش إكليل الزهر على العقل النشيط العامل") ، فيرســـم محـــيط الدائرة ويحدد مادة محتواها ، وهكذا تشبه القصيدة عند توماس سفينة نوح التي " تنقذ وتحمي " جميع الأشياء. ومن بوليت أيضاً يقتبس النظرية شديدة الإيحاء الـــتي تتعلـــق بنقطة الانطلاق التي يمكن من خلالها فهم عمل الكاتب ليس فقـــط للاســـتنتاج بـــل للاسترجاع أيضاً.

في نهاية المطاف ثمة شبه كبيرٌ بين الطريقة التي يصف بها ميللر فهـــم ستفنـــز " للوجود المجرد " وبين طريقة وصف هايديغر له في عمله "داسين": الوجود " هو طاقة منتشرة لا يمكن رؤيتها في ذاتها ، رغم أنها حاضرة ومرئية في كل الأشياء وكما يقول ستفنـــز: " إنه كشيء يتكون من الأثير ، فهو يتواجد حقيـــقة بنفس القـــدر الـــذي يجري التنبؤ به ".

إن الصعوبة المركزية في كتاب " شعراء الواقع " تتجلى في وصفه كيفيـــة تطـــور الظلمة عند كونراد إلى الوجود عينه ، كما لو كانت صوتاً خفيضاً عميقاً جرى تحويله إلى نغمات منسجمة متآلفة. يبدو أن ميللر ينفرد في إضفاء ترابط منطقي شامل علـــى النقد عند اليوت فلم يحلله إلى سلسلة من الوسائل الخاصة. فالفكرة تكمن هنا بالضبط إذ أن إليوت يتميز بنقد كامل يستند إلى القضايا الأصلية للتجربة الواقعية ولا يعتمـــد على أحكام مسبقة تكهنية ، كالتي ينتحلها ميللر لدى بحثه في عالم الأديب. ويمكننـــا للحظات أن نستشعر تأثير الفهم اللافت الذي عُرف عن آربي بلاكمور للإيماء " اللغة أمام اللغة " هذا هو ما يكوّن اللغة.

تشهد هذه الحالات من التطابق والتشابه على الطاقات الفريدة لدى ميللر ، وعلى الذكاء الذي يوظفها من خلاله. لكن ما زال هناك الكثير الكثير مما يتضمنه عمله ، وأتمنى أن يقوم يوماً بتوضيح أكبر لمنهجه وتفسيره له. فعلى سبيل المثال يخفق المرء في فهم بحث لالتزام ميللر في عمله بآراء غاستون باشلارد أو بأفكار هنري فوسيلون (التي اقتبس عنها ستفنز في عمله " ذا نيسيساري آنجل " التي تقول أن: " الوعي الإنساني في سعي دائم وراء اللغة والأسلوب الإبداعي " وأن: " السمة الرئيسية من سمات العقل هي تعبيره المستمر عن نفسه " ، كما نحتاج إلى فهم الصلة بين ميللر و بين فاليري و رايلك ، فالأول هو شاعر الوعي الأكثر رفعةً والثاني واقعي وبالغ الأهمية.

باختصار قد يستغرق ميللر خلال إكسائه لأفكاره النقدية في الظروف التاريخية والثقافية النوعية التي تنتج الشعر والنقد الواقعيين.

ما يقلقني على وجه الخصوص هو أن أكتشف أن ميللر يضع شعراء الواقع وأفكاره الواقعية على اتصال مع ضروب أخرى من الواقعية الحديثة ، كالواقعية الاشتراكية عند جورج لوكاش ولوشين غولدمان ، والعدمية الواقعية عند جينيت ، والواقعية المحكمة لدى بيكيت ، والواقعيون الذين كانوا محطاً لبحث هاري ليفين في عمله " ذا غيلز أوف هورن " والواقعية اللغوية عند فجنشتاين .

سأعبر عن طلبي لميللر بطريقةٍ أخرى ، تميزت الأبواب التمهيدية العامة (١٢ صفحة في شعراء الواقع ، ١٦ صفحةٍ في الكتاب الذي سبقه) بالتضمين وعدم المباشرة بشكل كبير ، حريٌ بنا أن نتوقع من ناقد تحدث بهذه الأصالة والمهارة مواجهة هامةً علنية مع القضايا الفلسفية والنقدية المركزية التي يتناولها. حتى الآن انكب هذا الناقد الظاهراتي على وصف الجوهر – ولا يضاهيه أحد في هذا – لكن عليه في بعض المواقع أن يتعامل مع " الصفات اللاجوهرية " التي تلعب عند شاعر كييتس دوراً أكبر من ذلك الذي يضفيه عليها ميللر. لقد وسَّع آفاق النقد الأمريكي فأصبح نقداً جديداً مبدعاً وفلسفياً حيوياً ، لذلك فمن الحماقة بمكان أن ننهي كلامنا دون أن نشير مجدداً إلى أن كتاب " شعراء الواقع " هو كتاب ممتاز.

- توماس دي كوينسي(١٧٨٥-١٩٢٤) : كاتب إنكليزي ولد في مانشستر من أعماله "عربة البريد الإنكليزية" عام ١٨٤٩.

- إميلي برونتي : (١٨١٨-١٨٤٨) : من أعمالها "مرتفعات وذرينغ" و هي قصة عن الحب الانفعالي ، توفّق في نهايتها بين المبادئ المتناقضة المتعلقة بالحيوية و الهدوء . تميزت بشعرها الصوفي .

- ماثيو آرنولد (١٨٢٢- ١٨٨٨) : شاعر إنكليزي عبّر في شعره عن عن الاهتمامات الفكرية في العصر الفكتوري ، و يعتبر أهم ناقد أدبي في عصره .

- جيرارد مانلي هوبكنز (١٨٤٤-١٨٨٩): شاعر عكس في عمله تجاوباً عاطفياً مع الطبيعة ، و قد أنتجت ابتكاراته الأسلوبية نسيجاً لغوياً معقّداً تجسّد في أعماله .

- جوزيف كونراد (١٨٥٧-١٩٢٤) : روائي إنكليزي ، بولندي المولد ، يعتبر من أعظم الكتّاب الإنكليز في العصر الحديث .
يستكشف في عمله الوهن و الضعف الأخلاقي الذي يستقر في قلب الحياة الإنسانية . من أهم أعماله :"قلب الظلمة"

- وليام باتلر ييتس (١٨٦٥-١٩٣٩) : شاعر و مسرحي إيرلندي حائز على جائزة نوبل ، يعتبر قائد النهضة الإيرلندية و واحد من أهم كتّاب القرن العشرين .

- تي إس إليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) : شاعر أميركي المولد ، يعتبر من أهم شعراء القرن العشرين . من أهم قصائده "الأرض القاحلة" كان إليوت مسرحياً و ناقداً أدبياً أيضاً ، حاز على جائزة نوبل عام **١٩٤٨** .

- ديلان مارليز توماس (١٩١٤-١٩٥٣):شاعر ويلزي و كاتب قصة قصيرة و كاتب مسرحي ، تألّق في اللغة المجازية الشفاهية ، و في احتفائه بجمال الطبية .

- والاس ستفنز (١٨٧٩-١٩٥٥) : شاعر أميركي ركّز في أعماله على معالجة تفاعل الفرد مع العالم الخارجي ، واظب على إجراء المقارنة بين كآبة الحياة الصناعية الحديثة و رتابتها و بين غنى الطبيعة .

- وليام كارولز وليامز (١٨٨٣-١٩٦٣):كاتب أميركي ابتكر منهجاً جديداً في القرن العشرين ، باستخدامه لغةً بسيطة ، تجنّب التعقيد و الرمزية المبهمة على عكس معاصره إليوت . أهم أعماله الملحمة بيترسون التي تعتبر من العلامات الفارقة في شعر القرن العشرين .

نهـــايـــة أوســلـــو

دخلت عملية أوسلو للسلام – كرواية كاذبة ومنقوصة منذ البداية – مرحلتـها النهائية بالمواجهة العنيفة ، القمع الإسرائيلي الواسع غير المتكافئ مع الطرف الآخـر ، ثورة فلسطينية عارمة و خسارات كبيرة لحياة الناس ، بشكل رئيســي الفلسـطينيين منهم.

لم تكن زيارة شارون إلى الحرم الشريف في ٢٨ أيلول لتحدث دونما تأييـدٍ مـن إيهود باراك ، و إلا فكيف لشارون أن يظهر هناك برفقة ألف جندي على أقل تقدير يتولون حراسته ؟ وقد ارتفعت نسبة موافقة باراك من ٢٠ إلى ٥٠% بعد الزيـارة ، ويبدو المسرح ممهداً لحكومة الوحدة الوطنية لترتكب المزيد من العنف والقمع.

مع ذلك لقد لاحت بشائر هذه الفوضى منذ البداية في عام ١٩٩٣ ، وقد نوّهـت إلى هذا على نحوٍ وافٍ في صحيفة «ذا نيشن» في ٢٠ أيلول عام ١٩٩٣ ، لم يخـفِ زعماء الليكود والعملُ على حدٍ سواء أنهم صمموا أوسلو بغية عزل الفلسـطينيين في مقاطعات غير متجاورة محاطة بأرضٍ أجنبية وليست قابلة للحياة اقتصادياً ، تحيط بهـا الحدود التي تتحكم بها إسرائيل وتقاطع المستوطنات وطرقها وحـدة أراضـي تلـك المقاطعات و تنتهكها بشكلٍ جوهري.

تواصل حكومات رابين وبيريز ونتنياهو وباراك تعنتها في مصادرة الملكية وتـدمير المنازل ، العمل الذي يواكبه توسيع المسـتوطنات المتكـاثرة (اسـتوطن ٢٠٠٠٠٠ يهودي إسرائيلي في القدس مؤخراً ، و ٢٠٠٠٠٠ آخرون في غزة والضفة الغربية) ، مازال الاحتلال العسكري قائماً ، وعندما تُتخذ أي خطوة صغيرة باتجـاه السـيادة الفلسطينية – بما في ذلك الاتفاقيات المجتزئة للانسحاب على مراحل – يتم إحباطها ، تأخيرها وإلغاؤها نـزولاً عند رغبة إسرائيل.

كان المنهج منافياً للعقل على الصعيدين السياسي والاستراتيجي ، فقـد وُضـعَت القدس خارج نطاق الحدود من خلال حملة إسرائيلية متصلبة مولعة بالقتال لتفريقهـا عن فلسطينيي الضفة والقطاع وللزعم بأنها عاصمة إسرائيل الموحدة و الدائمة.

أُبلغ اللاجئون الفلسطينيون البالغ عددهم أربعة ملايين لاجئ – عددهم هو الأكبر حالياً وقد قضوا الفترة الأطول كلاجئين على مستوى العالم حتى الآن – أن بإمكانهم نسيان أمر العودة أو التعويض ومازال ياسر عرفات – بنظامه الفاسد الـذي يتلقـى

الدعم من الموساد الإسرائيلي والـ **CIA** - يواصل الاعتماد على الوساطة الأمريكية على الرغم من أن المسؤولين السابقين في اللوبي الإسرائيلي يسيطرون على فريق التفاوض الأمريكي الذي يترأسه شخصٌ تشير أفكاره عن الشرق الأوسط إلى أنه لا يفقه شيئاً عن العالم العربي الإسلامي ، أُجبر الزعماء العرب (وبخاصة الرئيس المصري حسني مبارك) المذعنون ، والمعزولون والفاقدون للشعبية على الالتزام بالخط الأميركي بشكل مخزٍ ، السبب الذي أدى إلى إضعاف مصداقيتهم المتآكلة أمام شعوبهم ، دائماً كانت المقدمة للأولويات الإسرائيلية لم تطلق أي محاولة لمواجهة الظلم الذي تعرض له الفلسطينيون عندما طُرِدوا عام ١٩٤٨.

بالعودة إلى عملية السلام كان ثمة افتراضان إسرائيليان أميركيان لا يتبدلان وينبع كلاهما عن جهلٍ مروعٍ بالواقع ، يقول الأول أن الفلسطينيين سيستسلمون ويقبلون بالحلول الوسط بعد أن يكتفوا من الضرب و قسوة المعاملة ، وقد قبل عرفات في الواقع ودعا كل الفلسطينيين إلى إنهاء القضية ، وبهذا غفر لإسرائيل كل ما فعلته ، وهكذا لم تعر "عملية السلام" اهتماماً كبيراً للفقدان الفلسطيني الواسع للأرض والمصالح ، أو للصلات بين فصم العرى الذي حصل في السابق وانعدام الدولة الحالي ، في الوقت الذي مازالت إسرائيل القوة النووية والعسكرية المرعبة تتقمص شخصية الضحية وتطالب بالتعويض عن الإبادة الجماعية المعادية للسامية في أوربا ، ليس هناك حتى الآن اعتراف رسمي بمسؤولية إسرائيل (الموثقة بشكل كبير حالياً) عن مأساة ١٩٤٨ ، لكن المرء لا يستطيع أن يُجبر شعباً على النسيان سيما وأن الواقع الذي يشهده كل العرب يعيد إنتاج الظلم الأول يومياً.

يقول الافتراض الثاني أنه بعد سبع سنوات من الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة للفلسطينيين أينما كانوا ، يواظب واضعو السياسات الإسرائيلية و الأميركية على التطبيل لنجاحاتهم ، دون أن يرجعوا إلى الأمم المتحدة والمنظمات الأخرى التي يهمها الأمر ، يوجهون وسائل الإعلام الموالية تبعاً لإرادتهم ، يشوهون الواقع بانتصاراتٍ زائلة على طريق "السلام". بينما يحتج العالم العربي برمته وهو يرى سلاح الطائرات والمدرعات الإسرائيلي يدمر الأبنية الفلسطينية المدنية ويتسبب بكارثة إنسانية راح ضحيتها ما يقارب مئة شهيد وألفي جريح من الأطفال وغيرهم ، والفلسطينيون الإسرائيليون يثورون ضد معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثالثة ، إن وضع الانحياز والانحراف الحالي يتداعى ، أما الولايات المتحدة ورئيسها المنتهية ولايته فليس لديها ما

تفعله وهي المنعزلة في الأمم المتحدة والمكروهة في العالم العربي نظراً لنصرها غير المشروطة لإسرائيل.

لا تملك القيادات العربية والإسرائيلية ما تقدمه أيضاً ، على الرغم من أنها قد تختلق اتفاقية مؤقتة أخرى. كم كان كبيراً الصمت الفعلي لجماعة السلام الصهيونية في الولايات المتحدة وأوربا وإسرائيل ، إسرائيل التي تذبح الشبان الفلسطينيين بينما هم يساندون وحشيتها ويدعمون تعبيرها عن خيبة أملها بجحود الفلسطينيين. والأنكى من ذلك كله أن وسائل الإعلام الأميركية – التي روّعها اللوبي الإسرائيلي المرعب – تُطيل وتؤكد على لسان المعلقين ومنسقي الأخبار التقارير المحرّفة عن "وابل النيران المتعددة الجهات" وعن "العنف الفلسطيني" الأمر الذي يُلغي حقيقة أن إسرائيل هي التي تحتل عسكرياً والفلسطينيين هم من يقاومون الاحتلال ولا « يحاصرون إسرائيل » على حد تعبير مادلين أولبرايت. بينما تحتفل الولايات المتحدة بانتصار الشعب الصربي على ميلوسوفيتش ، يرفض كلينتون ومساعدوه أن ينظروا إلى الانتفاضة الفلسطينية من نفس المنظور على أنها نضال ضد الظلم.

وإني لأحسب جزءاً من الانتفاضة الفلسطينية موجهاً ضد عرفات الذي قاد – بوعوده الزائفة – الشعب الفلسطيني للانحراف عن الطريق القويم ، بينما يُبقي على رهط من المسؤولين الفاسدين الذين يحتكرون التجارة وأرباحها ، حتى وهم يفاوضون لمصلحته بضعف وقلة كفاءة. إنه ينفق ستين بالمئة من الميزانية العامة على البيروقراطية والأمن ، واثنين بالمئة فقط على البنية التحتية ، ومنذ ثلاث سنوات أقر المحاسبون العاملون لمصلحة عرفات باختفاء ٤٠٠ مليون دولار من الموارد المالية سنوياً ، ويقبل رعاته الدوليون بهذا باسم "عملية السلام" ، العبارة التي يمقتها الفلسطينيون اليوم أشد المقت.

إن ثمة خطة بديلة للسلام وطليعة فلسطينية تبرز ببطء بين فلسطينيي إسرائيل والضفة الغربية وغزة وفلسطينيي الشتات ، وقد وقّع ألف شخصية منهم على مجموعة من البيانات تحظى بتأييد شعبي واسع: لا رجعة إلى إطار أوسلو ، لا بديل أو تسوية لقرارات الأمم المتحدة الأصلية (٢٤٢ ، ٣٣٨ ، ١٩٤) التي التأم على أساسها مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ ، إزالة المستوطنات والطرقات العسكرية ، إجلاء الأراضي الملحقة أو المحتلة عام ١٩٦٧ ، مقاطعة البضائع والمصالح الإسرائيلية. ربما سيبزغ اتجاه جديدٌ في الرأي مفاده أن ليس هناك ما سيعود بالنفع سوى عمل واسع لمكافحة التمييز

العنصري الإسرائيلي (الذي يماثل التمييز العنصري في جنوب أفريقيا).

سيخطئ باراك وأولبرايت بالتأكيد عندما يعتبرون عرفات مسؤولاً عمّا لم يعد تحت سيطرته التامة. بدلاً من أن يرفضوا الإطار الجديد المقترح ، فإنه من الأولى بمؤيدي إسرائيل أن يدركوا أن مسألة فلسطين تتعلق بشعب بأكمله ، وليس بقائدٍ كهلٍ مخزٍ.

بالإضافة إلى ذلك يمكن للسلام في فلسطين/إسرائيل أن يقوم على أرضية متساوية بمجرد أن ينتهي الاحتلال العسكري ، ولا يمكن لأي فلسطيني – حتى وإن كان عرفات – أن يقبل بأقل من هذا.

تيارٌ جديد في فلسطين

إصدار ٤ شباط ٢٠٠٢

بعد أن بلغت الشهر السادس عشر من عمرها ، ليس لدى الانتفاضة الفلسطينية الكثير لتتباهى به على الصعيد السياسي برغم الصمود اللافت لشعب جُرِّد من أرضه، يفتقر القيادة ويعوزه السلاح وقد تحدى التدمير الذي جلبته الآلة الحربية الإسرائيلية عديمة الرحمة.

توافقت وسائل الإعلام الأمريكية الحكومية و – مع بعض الاستثناءات – المستقلة على العزف على وتر العنف والإرهاب الفلسطيني ، دون أن تعير انتباهاً إلى الاحتلال العسكري الإسرائيلي ذي الخمسة والثلاثين عاماً ، وهو الاحتلال الأطول في التاريخ المعاصر. وقد أدّت الاتهامات الأميركية الرسمية منذ ١١ أيلول للسلطة الفلسطينية تحت قيادة ياسر عرفات بأنها تُؤوي وترعى الإرهاب إلى تعزيز ادعاء حكومة شارون المنافي للمنطق بأن إسرائيل هي الضحية والفلسطينيين هم المعتدون خلال أربعة عقودٍ من الحرب التي يشنها الجيش الإسرائيلي ضد المدنيين والممتلكات والمؤسسات دون رحمةٍ أو تمييز. والنتيجة هي احتجاز الفلسطينيين في مئتين وعشرين من الغيتوات التي يضبطها الجيش الإسرائيلي ، بينما تسحق دبابات الميركافا الإسرائيلية وحوامات الهيلوكبتر ومقاتلات الـ (إف١٦) أميركية المصدر الناس والمنازل والحقول وبساتين الزيتون بشكلٍ يومي وتم تعطيل المدارس والجامعات والمؤسسات المدنية ومؤسسات الأعمال بشكلٍ كامل ، قُتل المئات وأصيب ما يقارب عشرين ألفاً من المدنيين الأبرياء وتتواصل اغتيالات الزعماء الفلسطينيين على أيدي إسرائيل ، وبلغت البطالة والفقر نسبة خمسين بالمئة.. كل هذا وما زال الجنرال أنتوني زيني يكرر برتابة تحميل مسؤولية العنف الفلسطيني للبائس عرفات ، الذي لا يستطيع حتى أن يغادر مكتبه الذي تحاصره الدبابات الإسرائيلية في رام الله ، بينما يتراكض عناصر قواته الأمنية المتعددة والممزقة محاولين إنقاذ مكاتبهم وثكناتهم من الدمار.

ولتزداد الأمور سوءاً أدّى الإسلاميون الفلسطينيون خدمةً كبيرةً لطواحين الدعاية الإسرائيلية التي لا تعرف الشفقة و لضباط الجيش الذين يقفون على أهبة الاستعداد الدائم ، عندما نفذوا سلسلةً متفرقةً من التفجيرات الانتحارية البربرية المتوحشة ، التي دفعت عرفات في نهاية المطاف إلى توجيه قواته الأمنية المشلولة ضد حركتي حماس والجهاد الإسلامي في منتصف كانون الأول ، فاعتقلت المقاتلين ، وأغلقت المكاتب ،

وأطلقت النار على المتظاهرين بين الحين والآخر مما أدى إلى مقتل عدد منهم. كل ما يطلبه شارون يهرع عرفات إلى تنفيذه ، وفي نفس اللحظة يطلب شارون طلباً آخر ، فإما أن يختلق حادثة أو أن يقول ببساطة – وبدعم أميركي – أنه غير راضٍ ، إذا أن عرفات يظل إرهابياً لا يمت للسلام بصلة (وقد تلذذ شارون بمنعه من حضور طقوس الميلاد في بيت لحم) وإن غرضه الرئيسي في الحياة هو قتل اليهود. أما ردُّ عرفات المحير على ذلك الازدحام الذي لا يُعقل من الاعتداءات الوحشية على الفلسطينيين وعلى الرجل الذي هو قائدهم بمختلف الظروف وعلى وجودهم القومي المُهان سلفاً ، فكان مواظبته على طلب العودة للتفاوض ، وكأن حملة شارون ضد إمكانية التفاوض لم تكن واضحة فعلياً ، وكما لو أن فكرة عملية أوسلو للسلام لم تتبخر جملةً واحدة. ما يُدهشني أنه باستثناء عدد صغير من الإسرائيليين (كان آخرهم ديفيد غروسمان) فإن أحدهم لا يعلن للملأ ويقول أن إسرائيل تضطهد الفلسطينيين.

إن نظرةً أقرب للواقع الفلسطيني ستمنحنا سرداً للأحداث مشجعاً بعض الشيء. أظهرت استطلاعاتٌ للرأي أُجريت مؤخراً أن عرفات ومعارضيه الإسلاميين (الذين يزعمون بهتاناً أنهم المقاومة) يتقاسمون فيما بينهم نسبة تتراوح بين ٤٠ وَ ٤٥٪ من التأييد الشعبي. هذا يعني أن أغلبية الفلسطينيين الصامتة لا تؤيد السلطة الفلسطينية التي خانت الثقة الممنوحة في أوسلو (ولا نظامها الفاسد القمعي الذي لا يخضع للقانون) ولا تؤيد العنف الإسلامي أيضاً. وقد قاوم التكتيكي البارع أبداً ياسر عرفات بانتداب الدكتور سامي نسيبية – وهو من أبناء القدس البارزين ورئيس جامعة القدس ونصير متحمس لفتح – ليدلي بخطابات تهدف إلى جس نبض الرأي العام ، إذ أوحى فيها أنه إذا ما كانت إسرائيل أكثر لطفاً ، سيتخلى الفلسطينيون عن حق العودة بالإضافة إلى ذلك قامت مجموعة كبيرة من الشخصيات الفلسطينية البارزة القريبة من السلطة (أو بدقة أكبر لم تكن نشاطاتهم مستقلةً عن السلطة يوماً) بتوقيع البيانات مع مجموعة من ناشطي السلام الإسرائيليين وما زالت تواصل العمل معهم ، مع أنهم إما أن يكونوا خارج السلطة أو أنهم عديمي النفع وغير موثوق بهم.

يُفترض بتلك الممارسات الباعثة على الكآبة أن تظهر للعالم أن الفلسطينيين يريدون السلام مع إسرائيل نزولاً عند أي ثمن ، حتى وإن كان التكيف مع الاحتلال العسكري. لم يهزم عرفات بعد ، طالما أن الأمر يتعلق بحرصه الذي لا ينتهي على البقاء في السلطة.

ولو ابتعدنا قليلاً عن كل هذا ، فإن ثمة تياراً وطنياً مدنياً جديداً ينشأ ببطء ، وقريباً سندعوه حزباً أو جبهة ، وهو الآن بمجموعته الواضحة يحقق مكانةً مستقلةً شعبية حقيقية ، ويضم في صفوفه الدكتور حيدر عبد الشافي ، والدكتور مصطفى البرغوثي (يجب ألا نخلط بينه وبين قريبه الناشط في ميليشيا فتح مروان البرغوثي) ، إلى جانب إبراهيم دقاق ، والأساتذة الجامعيين زياد أبو عمر ، ممدوح العكر ، أحمد حرب ، علي جرباوي ، فؤاد مغربي وأعضاء المجلس التشريعي : راوية الشوًا وكمال شيرفي ، و الأدباء حسان خضر ومحمود درويش ورجا شحادة وريما طرزي وغسان الخطيب وناصر أروري وعليا زريق وأنا.

وقد أصدرنا بياناً شاملاً في منتصف كانون الأول ، غطته وسائل الإعلام العربية والأوربية بشكل جيد (ولم يُشر إليه في الولايات المتحدة) ، دعونا فيه إلى المقاومة والوحدة الفلسطينية والإنهاء غير المشروط للاحتلال العسكري الإسرائيلي ، بينما تعمَّدنا التزام الصمت فيما يتعلق بالعودة إلى أوسلو. نحن نؤمن بأن التفاوض لتحسين الوضع تحت الاحتلال هو عمل يساوي إطالة عمر هذا الأخير ، لا يمكن أن يحلَّ السلام إلا بعد انتهاء الاحتلال. وقد ركزت الأجزاء الرئيسية من البيان على الحاجة إلى تحسين الوضع الداخلي الفلسطيني بتعزيز الديمقراطية قبل أي شيء ، تصحيح عملية صنع القرار (التي يسيطر عليها عرفات ورجاله كلياً) ، التأكيد على الحاجة لاستعادة سيادة القانون واستقلال القضاء ، منع أي إساءة استخدام أخرى للمال العام ودعم أداء المؤسسات العامة بغية أن تصبح موضعاً لثقة مختلف المواطنين سيما وأنها أُسست خصيصاً لخدمة المصلحة العامة ، وكان مطلبنا الأخير والأكثر حسماً هو الدعوة لانتخابات نيابية جديدة.

مهما كانت الطريقة التي قُرِئَ بها هذا البيان ، فلا بُدَّ من الإقرار بأنه لم يكن بين الكثير من الجهات المستقلة البارزة - ومن ضمنها بشكلٍ خاص المنظمات العاملة الصحية والتربوية والمهنية ومنظمات العمل - من ذكر هذه النقاط سواء بين الجهات الفلسطينية الأخرى (الذين وجدوا أن البيان هو الأكثر فعاليةً بين الانتقادات التي وُجِهت لنظام عرفات حتى الآن) أو بين العسكريين الإسرائيليين.

بالإضافة إلى ذلك وبينما تتلهف السلطة لإطاعة أوامر شارون وبوش عندما تعتقل الإسلاميين المشتبه بهم عادةً ، أطلق الدكتور مصطفى البرغوثي حركة التضامن الدولية اللا عنيفة ، التي تضم ما يقارب خمسمئة وخمسين مراقباً أوروبياً (بعضهم أعضاء في

البرلمان الأوروبي) وقد انتقلوا جواً إلى فلسطين على حسابهم الخاص ، وهناك رافقتهم فرقة انضباط من الشبان الفلسطينيين الذين حالوا دون رمي الحجارة أو إطلاق النار من الجانب الفلسطيني ، في حين أن حركة القوات الإسرائيلية والمستوطنين الإسرائيليين عطّلت عملهم طوال الطريق. وقد نجح هذا العمل في تنحية السلطة والإسلاميين عن المشهد ، وأدّى إلى وضع جدول للأعمال ركز اهتمامه على الاحتلال الإسرائيلي ، حدث كل هذا بينما كانت الولايات المتحدة تستخدم حق الفيتو للاعتراض على قرار مجلس الأمن الذي يعطي الصلاحية لمجموعة من المراقبين غير المسلحين للتوسط بين الجيش الإسرائيلي والمدنيين الفلسطينيين العُزَّل .

إن النتيجة الأولى التي تمخضت عن هذا العمل كانت في الثاني من كانون الثاني ، فبعد أن عقد البرغوثي وحوالي عشرين من الأوربيين مؤتمراً صحفياً في القدس الشرقية تعرّض للاعتقال والحجز والاستجواب مرتين على أيدي الإسرائيليين الذين كسروا ركبته بأعقاب البنادق وآذوا رأسه زاعمين أنه يُعكّر السلام ، وأنه دخل القدس بشكل غير قانوني (على الرغم من أنه وُلِد هناك ، كما أنه يحمل رخصةً طبيةً للدخول). لم ينجح أي من تلك الأعمال في ثنيه ومسانديه عن مواصلة الكفاح اللاعنيف ، الذي — كما أعتقد — حتماً سيتسلّم دفة قيادة الانتفاضة التي تتم إدارتها الآن بشكلٍ عسكري أكثر مما ينبغي ، وسيتجه بها قومياً نحو إنهاء الاحتلال والاستيطان ، ويقود الفلسطينيين إلى امتلاك الدولة والسلام. لدى إسرائيل أسبابٌ لتخاف رجلاً كالبرغوثي ، الفلسطيني الهادئ والعقلاني والمحترم ، أكثر مما تخاف من المتطرفين الإسلاميين الملتحين الذين يحب شارون تشويه حقيقتهم زاعماً أنهم جوهر التهديد الإرهابي لإسرائيل. إن كل ما يفعلونه هو اعتقاله ، فالاعتقال هو حالة نموذجية لا تنفصم عن سياسة شارون المفلسة.

إذن أين هم الأحرار الإسرائيليون و الأميركيون ، الذين يسارعون إلى إدانة العنف بينما لا يذكرون إلا القليل عن الاحتلال الشائن المجرم؟

أقترح جدياً أن ينضموا إلى متاريس (واقعياً ورمزياً) الناشطين الشجعان من أمثال جيف هالبر عضو اللجنة الإسرائيلية لمكافحة تدمير المنازل ، والإيطالية لويزا مور غانتيني العضو في البرلمان الأوربي أن يقفوا جنباً إلى جنب مع تلك المبادرة الفلسطينية المدنية الواعية ، وأن يباشروا الاحتجاج على الأساليب العسكرية الإسرائيلية التي يساهم في تمويلها بشكلٍ مباشر دافعوا الضرائب وصمتهم الذي يدفعون ثمنه باهظاً.

أما بالنسبة لمناصري السلام المزعومين الذين لم يحركوا ساكناً طيلة عامٍ من الزمن ،

فقد اكتفوا بأن تذمروا لغياب حركة سلام فلسطينية (ومنذ متى أصبحت الشعوب التي ترزح تحت الاحتلال تتحمّل مسؤولية إطلاق حركة سلام ؟) يتوجب عليهم ، وهم القادرون على التأثير الفعلي على العسكريين الإسرائيليين ، أن يؤدوا واجبهم السياسي ضد الاحتلال العسكري في هذه اللحظة بالذات ، ودون أن يفرضوا أي شرط أو طلب غير ملائم على الشعب الفلسطيني المرهق مسبقاً.

وهناك من أدَّى هذا الواجب ، فقد رفض مئات من الجنود الاحتياطيين الإسرائيليين أن يؤدوا خدمتهم في الأراضي المحتلة ، ومازال نفرٌ واسعٌ من الصحفيين والناشطين والأكاديميين والكُتّاب (ومنهم أميرة هاس ، وجدعون ليفي وديفيد غروسمان وإسحق لاور وإيلان بابيه وداني رابينوفيتش ويوري أفنيري) ما زالوا يواصلون هجومهم الراسخ على حملة شارون الإجرامية والعبثية ضد الشعب الفلسطيني.

ويُفترض من ناحية مثالية أن تكون ثمة مجموعة مشابهة في الولايات المتحدة لكن ما نصادفه هناك هو ضلوع كبير في الجريمة وقرع شديد على الطبول هذا إذا استثنينا حفنةً صغيرة من الأصوات اليهودية التي تعلن على الملأ غضبها وحنقها من الاحتلال الإسرائيلي.

إن اللوبي الإسرائيلي ينجح مؤقتاً في محاولته للمطابقة بين الحرب على ابن لادن من جهة وبين هجوم شارون الشامل و العازم ضد عرفات وشعبه. أما المجتمع العربي في أميركا فهو للأسف صغير محاصَر كما أن عليه أن يواجه شبكة أشكروفت المتسعة ، وأن يقاوم تقليص الحريات المدنية والتصور العنصري ، ولذلك فإن التنسيق بين الجماعات المدنية المساندة للفلسطينيين هو أكثر ما نحتاجه لمواجهة حالة الشتات الفلسطيني الحالي ولتذليل العائق الآخر الذي يجسده الاغتصاب الإسرائيلي ، وإن إنهاء الاحتلال يتجلى أمامنا كضرورة ملحة ... فلنقم بإنهائه إذاً.

صنيع إسرائيل

فشلت الجهود الإسرائيلية الرامية إلى الحد من التغطية الإعلامية لاجتياحها المدمّر للبلدات و لمخيمات اللاجئين في الضفة الغربية في منع الأنباء و الصور من التسرّب ، فانتشرت مئات التقارير المسموعة و المرئية التي أفاد بها شهود عيان عبر شبكة الإنترنت ، كما بُثّ العديد من هذه التقارير عبر شبكات التلفزة العربية و الأوروبية ، التي كان معظمها إما غير متاح أو تم اعتراضه و نبذه خارج الوسائل الإعلامية المنتشرة في الولايات المتحدة .كان ذلك دليلاً ساطعاً على الهدف الفعلي للحملة الإسرائيلية المتمثّل -كما كان دائماً- في الإخضاع الذي لا رجعة فيه للأرض و المجتمع الفلسطيني .تؤكد الجهات الرسمية (التي دعمتها واشنطن بشكلٍ جوهري ، كما ساندها سائر المعلقين في وسائل الإعلام الأميركية) أن إسرائيل دافعت عن نفسها بالثأر رداً على التفجيرات الانتحارية ، التي أضعفت أمنها و هدّدت وجودها، فاحتلّ ذلك الزعم مكانة الحقيقة المطلقة التي لم يقلّل من شأنها لا صنيع إسرائيل ولا ما تعرّضت له فعلياً .

إن عبارات من نمط "اجتثاث الشبكة الإرهابية" ، و "تدمير البنية التحتية للإرهابيين" ، و"مداهمة أوكار الإرهابيين"يجري تكرارها كثيراً في غفلة عن أن هذا يبيح لإسرائيل أن تمحق الحياة المدنية الفلسطينية فتصل بتدميرها درجةً مروعةً من الوحشية المحضة والقتل والإذلال والتخريب ، لكن هذا يبيح لإسرائيل أن ادعاء إسرائيل المدهش - إن لم نقل المضحك لشدة غرابته - بأنها تقاتل دفاعاً عن وجودها. يتلاشى ببطء ، نتيجةً للخراب الذي أحدثته الدولة اليهودية بزعامة رئيس وزرائها آرييل شارون . فلنتأمل هذا النبأ الذي ظهر على الصفحة الأولى في إصدار صحيفة "نيويورك تايمز "(١١نيسان) ، و قد كتبه سيرج شمان (وهو ليس داعية فلسطينية):"حولَت الهجمات المدن الفلسطينية إلى كتل من الصفيح وأكوام من الرماد يعجز المرء عن تقدير حجم الأضرار التي لحقت بالمدن والبلدات..رام الله وبيت لحم و طولكرم و قلقيلية ونابلس وجنين ..التي ما تزال ترزح تحت حصار شديد ، يجوب القنّاصون و الدوريات شوارعها ، يطلقون النار هنا و هناك . يمكننا أن نقول بصراحة أنه قد جرى تدمير البنى التحتية للحياة نفسها و لأي دولةٍ فلسطينية مستقبلية ..الطرقات ، المدارس ، الأبراج الكهربائية أنابيب المياه و خطوط الهاتف .

ما هو المعيار الهمجي الذي أتاح للجيش الإسرائيلي أن يستخدم عشرات الدبّابات

و ناقلات الجند المدرّعة إلى جانب حوّامات الأباتشي - ذات المصدر الأميركي - التي ألقت مئات الصواريخ في حصار مخيّم اللاجئين في جنين لمدة تجاوزت الأسبوع ؟ ذلك المخيّم الممتد على مساحة كيلومتر مربع واحد بأكواخه التي يقطنها خمسة عشر ألفاً من اللاجئين ، و الذي اقتصر سلاحه على القليل من البنادق الآلية حملها بضعة عشرات من الرجال الذين لا يملكون صواريخ أو دبّابات ما هو المعيار الذي خوّله أن يدعو تلك الحملة ردّاً على العنف و الإرهاب لوجود إسرائيل ؟

ثمة أنباءٌ تفيد أن المئات دُفنوا تحت الركام ، الذي بدأت الجرّافات الإسرائيلية بتكديسه فوق أنقاض المخيم بعد نهاية القتال .

هل أصبح المدنيون الفلسطينيون ، رجالاً و نساءً و أطفالاً ، مجرّد فئرانٍ و صراصير يمكن مهاجمتها و قتلها بالآلاف دون كلمة تُقال رأفةً بها أو دفاعاً عنها ؟ ماذا عن أسْرِ الآلاف من الرجال على أيدي الجنود الإسرائيليون ؟ وعن الفقر المدقع الذي ألَم بالعديد من الناس العاديين وهم يحاولون الخلاص من بين الأنقاض التي خلفتها الجرافات الإسرائيلية في شتى أنحاء الضفة الغربية ؟ عن الحصار المتواصل منذ شهور وعن حرمان البلدات الفلسطينية من الكهرباء و الماء ؟ عن الأيام الطوال التي يستمر فيها حظر التحول الشامل وعن النقص في إمدادات الغذاء والدواء ؟ ! ماذا عن الجرحى الذين نزفوا حتى الموت ؟ ! ماذا عن الهجمات المنتظمة على سيارات الإسعاف وعلى المعاونين الاجتماعيين ، التي شجبها كوفي عنان وهو صاحب السلوك البارد ووصفها بالهجمات الشائنة ؟.ليس من السهل دفع تلك الأعمال في ثقوب الذاكرة.

على أصدقاء إسرائيل أن يسألوها أين هي الإمكانية في أن تؤدي سياستها الانتحارية بها إلى السلام والقبول والأمن.

لقد أباح ما قامت به آلة دعاية مرعبة من تحويلٍ رهيب لشعب برمته إلى أقل من مجموعة من المقاتلين والإرهابيين للعسكريين الإسرائيليين و لإسطولٍ كامل من الكُتّاب والمدافعين عنهم ، أباح لهم طمس تاريخٍ فظيع من الظلم والمعاناة والتعسُف بغية تأمين الحصانة لعملية تدمير الوجود المدني للشعب الفلسطيني. وقد نسي الرأي العام العالمي تدمير المجتمع الفلسطيني عام ١٩٤٨وطرد الفلسطينيين من أراضيهم ، اجتياح الضفة الغربية و غزة و احتلالهما عسكرياً منذ عام ١٩٦٧ ، غزو لبنان عام ١٩٨٢ الذي خلّف ١٧٥٠٠ قتيل لبناني و فلسطيني بالإضافة إلى مذابح صبرا و شاتيلا ، الاعتداء

المستمر على المدارس و مخيمات اللاجئين و المشافي و على أشكال التجهيزات المدنية الفلسطينية كافة .

كيف ستخدم أعمال التدمير مكافحة الإرهاب ؟ تدمير مبنى وزارة التربية ثم إتلاف سجلاتها ، تخريب المجلس البلدي في رام الله و الدائرة المركزية للإحصاء ، و مختلف المعاهد المتخصّصة في الحقوق المدنية و الصحة و التنمية الثقافية و الاقتصادية ، تدمير المشافي و المحطات الإذاعية و محطات التلفزة ، كيف لها أن تفيد في مكافحة الإرهاب ؟ أليس واضحاً أن شارون منكبٌ ليس على سحق الفلسطينيين فحسب ، بل على محاولة القضاء عليهم كشعبٍ له مقوماته الوطنية .

و في ظلّ تفاوت القوى و عدم تناسقها ، يبدو منافياً للمنطق أن نواصل سؤالنا للفلسطينيين بالتخلّي عن العنف و هم الذين لا يملكون جيشاً أو قوةً جوية أو دبّابات أو قيادةً فعّالة ، و في الوقت عينه لا يجري فرض قيود مشابهة على أعمال إسرائيل و بالتالي يسهم هذا في التستر على استعمالها قوة القتل في مواجهة شعبٍ أعزل ، و الذي وثّقته بغزارة سائر منظمات حقوق الإنسان الرئيسية .

حتى مسألة التفجيرات الانتحارية ، التي عارضتُها دائماً لا تجوز معاينتها من وجهة نظرٍ تتسامح مع معيارٍ عنصري مستتر يرى أن الحياة الإسرائيلية أثمن من حياة عددٍ كبيرٍ من الفلسطينيين المفقودين و المشوّهين و المقعدين على أيدي احتلالٍ عسكريٍ طويلِ الأجل ، و عن طريق ممارسةٍ همجية واسعة منظمة اعتمدها شارون ضدّ الفلسطينيين منذ بداية حياته العملية .

من غير الممكن أن نتصوّر سلاماً لا يعالج القضية الحقيقية ، ألا و هي رفض إسرائيل المطلق لسيادة الفلسطينيين و استقلالهم و تمتعهم بحقوقهم على أرض الضفة و القطاع ، التي طالما اعتبرها شارون و معظم مسانديه ملكاً لإسرائيل الكبرى .

نشرت صحيفة الـ"فايننشال تايمز" في الخامس من نيسان لمحةً مختصرةً عن حياة شارون ، و قد ختمتها بخلاصة معبّرة من سيرته الذاتية، حيث استبقتها بالكلام الآتي : "كتب فخوراً بإيمان آبائه أن اليهود و العرب قادرون على الحياة كمواطنين جنباً إلى جنب."

ثم كانت الفقرة ذات الصلة من كتاب شارون : "لكنهم آمنوا دون أي شك ، أن الأرض ملكهم وحدهم ، و لن يتمكن أحدٌ من حملهم على مغادرتها ، لن يتمكن من ذلك لا الإرهاب و لا أي شيء آخر . عندما تنتمي الأرض بطبيعتها لك يعني أنك مالكٌ للقوة ، ليس القوة المادية فحسب بل الروحية أيضاً ."

في عام ١٩٨٨ قدّمت منظمة التحرير الفلسطينية التنازل الذي وافقت بموجبه على تقسيم فلسطين إلى دولتين ، و قد جرى تأكيد هذه الموافقة في مناسبات عدة و في وثائق أوسلو على وجه الخصوص لكن الفلسطينيين وحدهم أقرّوا بفكرة التقسيم بشكلٍ واضحٍ جلي ، أما إسرائيل فلم تعترف بها يوماً و لهذا السبب تنتشر أكثر من مئة و سبعين مستوطنة إسرائيلية على الأرض الفلسطينية ، بينما تربطها شبكةٌ من الطرقات بطول ثلاثمائة ميلٍ تعيق حركة الفلسطينيين كلياً (كلفة هذه الشبكة ثلاثة مليارات دولار و تتكفّل بها الولايات المتحدة وفقاً لجيف هالبر رئيس الجمعية الإسرائيلية لمكافحة تدمير المنازل) و لهذا أيضاً لم يتنازل أي من رؤساء وزراء إسرائيل للفلسطينيين عن سيادةٍ حقيقية ، و لهذا لا تزال المستوطنات تتكاثر سنوياً .

لا نحتاج إلا لنظرةٍ خاطفةٍ إلى الخريطة المرافقة لنميط اللثام عمّا قامت به إسرائيل و عن ما تزال تقوم به خلال عملية السلام ، و سنتبيّن بالتالي التقطّع الجغرافي الناجم و التضاؤل الجاري في الحياة الفلسطينية .

في الواقع ، ترى إسرائيل أن فلسطين كلّها ملكٌ لها و للشعب اليهودي ، و تضمن ذلك قوانين تملّك الأراضي في إسرائيل ، أما الضمانة في الضفة الغربية و غزة فتؤمنها المستوطنات و الطرقات إلى جانب رفض التخلّي للفلسطينيين عن حقوق السيادة على الأرض . و يحيّرني غياب الاعتراض الرسمي في هذا المقام ، سواء في أميركا أو البلدان العربية أو الأمم المتحدة أو أوربا أو مكانٍ آخر كما تمّ التغاضي عنه على امتداد اتفاقيات أوسلو ، و لهذا السبب ما زالت إسرائيل تسيطر على الضفة الغربية و القطاع بعد ما يقارب عشر سنينٍ من التفاوض . ثمة ألف دبّابة و آلافٌ من الجنود يسيطرون بشكلٍ مباشرٍ على القطاع و الضفة اليوم ، لكن المبدأ الأساسي مطابقٌ لذلك تماماً .

لم يسبق لزعيمٍ إسرائيلي (و من بينهم شارون و مساندي نظرية أرض إسرائيل الذين يشكّلون أغلبية حكومته) أن أقرّ رسمياً أن هناك احتلالاً للأراضي ، لم يعمل أحدهم على الاعتراف بأن الفلسطينيين ربما أو قد ينالون نظرياً حقوق السيادة (حيث لا تسيطر إسرائيل على الحدود أو المياه أو على الجو أو الأمن) على الأرض التي يعتبرها معظم العالم فلسطينية . فإذا تحدّثنا عن الرؤية للدولة الفلسطينية كما أصبح رائجاً ، سنجد أنها ستظلّ مجرّد رؤية ما لم تتخلّ الحكومة الإسرائيلية رسمياً و علانية عن مسألة السيادة على الأرض و ملكيتها لم تقم أي حكومة سابقة بذلك ، و إن صدقت توقعاتي فلن يحصل هذا في المدى المنظور .

لا بدّ من التذكير أن إسرائيل اليوم هي الدولة الوحيدة في العالم التي لم تعلن حدودها دولياً ، الدولة الوحيدة التي لا يمتلكها مواطنوها و إنما جميع اليهود ، الدولة التي تنفرد بتخصيص تسعين بالمئة من الأرض لمنفعة اليهود وحدهم . إن استهزاء إسرائيل المنتظم بالقانون الدولي (كما أظهره ريتشارد فالك على هذه الصفحات الأسبوع الماضي) يضع أمامنا العمق و التعقيد البنيوي اللذين يتميّز بهما الرفض المطلق الذي يضطر الفلسطينيون على مواجهته .

جعلتني تلك الأمور أشك في أية مناقشات أو اجتماعات تدور حول السلام ، و هي كلمة فاتنة محبّبة لكن معناها في الظروف الحالية ينحصر عادةً في مطالبة الفلسطينيين بالكفّ عن مقاومة السيطرة الإسرائيلية على أراضيهم . و من مكامن الضعف المتعدّدة في قيادة عرفات الرديئة (هذا إن لم نقل شيئاً عن القيادات العربية التي تفوقه رداءةً بشكلٍ عام) أنه لم يدفع مفاوضات أوسلو التي استمرّت عقداً كاملاً إلى التركيز على موضوع ملكية الأرض الفلسطينية ، و بهذا لم يحمّل إسرائيل مسؤولية إعلان نيّتها على التخلّي عن تلك الملكية ، كما أنه لم يسع إلى وضع إسرائيل أمام التعامل مع مسؤولياتها عن مختلف أشكال المعاناة التي يتعرّض لها شعبه .

ينتابني قلقٌ الآن لأنه ربما ببساطة يحاول إنقاذ نفسه من جديد ، بينما نحن نحتاج حقاً إلى مراقبين دوليين لحمايتنا ، و إلى انتخاباتٍ جديدة تضمن مستقبلاً سياسياً حقيقياً للشعب الفلسطيني .

السؤال الصعب الذي تواجهه إسرائيل و شعبها هو عن إرادتها في أن تكون بلداً كغيرها يتمتّع بحقوقه و يفي بالتزاماته و في أن تكذّب المزاعم الاستعمارية غير الممكنة التي يقاتل شارون و جنوده من أجلها كما قاتل آباؤه لأجل هذا الهدف منذ اليوم الأول .

خسر الفلسطينيون ٧٨% من فلسطين عام **١٩٤٨** ، و في عام **١٩٦٧** فقدوا الاثنين و العشرين بالمئة المتبقّية . يتوجّب على المجتمع الدولي اليوم أن يلزم إسرائيل بالقبول بمبدأ تقسيم حقيقي و ليس وهمي و بمبدأ الحد من مزاعمها التوسّعية و ادعاءاتها و قوانينها التوراتية السخيفة التي ما زالت تتيح لها حتى الآن تجاهل وجود شعب آخر .

لماذا يجري التغاضي عن ذلك النوع من التعصّب دون أية إشارة استفهام ؟! و ما نسمعه حتى الآن هو أن على الفلسطينيين أن يكفّوا عن العنف و أن يدينوا الإرهاب .

أما من أمرٍ واقعي جوهري يُطلب من إسرائيل ؟ و هل يمكنها أن تستمر بالقيام بما يحلو لها دون التفكير بالعواقب ؟ هذا هو السؤال الحقيقي المتعلّق بوجودها ، فهل يمكنها التواجد كبقية الدول ؟ أو أنها لا بدّ أن تقوم دائماً على القيود و الواجبات التي تفرضها على دولٍ أخرى . ليست المؤشرات مطمئنة .

خارطة الطريق إلى أين؟

في بداية شهر آيّار ، التقى كولن باول خلال زيارته لإسرائيل والأراضي المحتلة برئيس الوزراء الفلسطيني الجديد محمود عبّاس ، كما قابل على انفراد عدداً من ناشطي المجتمع المدني ومنهم حنان عشراوي ومصطفى برغوثي ، الذي روى أن باول أعرب عن دهشته وخوفه إزاء الخرائط الكمبيوترية للمستوطنات والجدار البالغ ارتفاعه ثمانية أمتار والعشرات من نقاط التفتيش التابعة للجيش الإسرائيلي التي ما زالت تصعّب من حياة الفلسطينيين وترسم صورة داكنة لمستقبلهم. ولنقلْ أن نظرة باول للواقع الفلسطيني هي الأقل خللاً ، وعلى الرغم من مركزه المهيب فقد طلب أشياء ملموسة ليحملها معه والأهم من ذلك أنه طمأن الفلسطينيين بأن ثمة مسعى مماثلاً للذي قام به بوش في القضية العراقية يجري الآن بهدف تنفيذ "خارطة الطريق".

كان بوش قد أثار الموضوع عينه في مقابلة تلفزيونية أجراها مع وسائل الإعلام العربية في الأيام الأخيرة من آيّار ، ورغم ذلك فقد ركزَّ على العموميات – كعادته – بدلاً من تناول مسألة بذاتها ، كما أنه التقى قادة فلسطين وإسرائيل في الأردن بعد أن قابل زعماء العرب الرئيسيين خلا الرئيس السوري بشار الأسد طبعاً ، ويندرج كل ذلك تحت ما يبدو أنه الآن دفعٌ أمريكي هام باتجاه الأمام ، ويبدو أن موافقة آريل شارون على خارطة الطريق (رغم أنه وضع تحفظات كفيلة بأن تلغي هذه الموافقة من أساسها) تبشر بدولة فلسطينية قابلة للحياة يُفترض أن رؤيا بوش (توحي العبارة بسجع فاتن ساحر وحالم ضمن خطة السلام الواقعية والنهائية المراد وضعها) ستتحقق بإعادة بناء السلطة الفلسطينية ، وبالقضاء على جميع أشكال العنف والتحريض ضد الإسرائيليين ، وبتنصيب حكومة تلبي مطالب إسرائيل وما يُسمى بالرباعية (الولايات المتحدة والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا) المسؤولة عن تنفيذ الخطة ، على أن تتكفل إسرائيل من جهتها بتحسين الوضع الإنساني عن طريق تخفيف القيود المفروضة وإنهاء عمليات حظر التجوّل حتى عندما وحيثما لا تكون مشمولة ضمن البنود.

من المفترض أن تشهد المرحلة الأولى تفكيك المستوطنات الستين على قمة الهضبة (المدعوة بـ: " المستوطنات الأمامية اللاشرعية "والتي أُسست منذ أصبح شارون في سدة الحكم في آذار ٢٠٠١) دون أن يُذكر شيء عن إزالة بقية المستوطنات التي

يقطنها قرابة ألفي مستوطن في الضفة وغزة ، هذا إن غضضنا النظر عن ألفين أخرين من المستوطنين في القدس الشرقية الملحقة.

وتوصف المرحلة الثانية بأنها انتقالية ، إذ تركز على نحو منقوص على خيار خلق دولة فلسطينية مستقلة بحدود مؤقتة وخاصيات مؤقتة أيضاً للسيادة - لا يوجد أي تفصيل- و ستبلغ هذه المرحلة ذروتها في مؤتمر دولي يُعقد بنيّة الموافقة على دولة فلسطينية ثم "خلق" هذه الدولة عندئذ ، ومرّة أخرى "بحدود مؤقتة" ، أمّا المرحلة الثالثة فستنهي الصراع بشكلٍ تامٍ عن طريق مؤتمر دولي آخر سيعمل على حلٍّ جميع القضايا الشائكة : اللاجئين ، المستوطنات ، القدس والحدود وكل ما على إسرائيل أن تقوم به من كل ما سبق هو أن تتعاون وعلى الفلسطينيين يقع العبء الحقيقي ، يجب أن يواصلوا الالتحاق بركب الطيبين ، بينما يبقى الاحتلال العسكري بشكلٍ أو بآخر حتى وإن تمَّ تخفيضه في المناطق الرئيسية التي اجتيحت في ربيع عام **٢٠٠٢** ، ليس هناك من تصورٍ لعنصر المراقبة ، إن التناسق المضلّل في هيكل الخطة يترك لإسرائيل المسؤولية عمَّا سيحصل - هذا إن حصل - فيما بعد.

أما بالنسبة لقضية حقوق الإنسان الفلسطيني ، فلا يجري تجاهلها قدر ما يتم طمسها في الوقت الراهن ، لم يُكتب أي تصحيح معين لوضع الفلسطينيين ضمن الخطة: من الواضح أن استمرار إسرائيل كالسابق أو عدم استمرارها منوط بها.

يرى المعلقون المألوفون أن بوش - هذه المرة - يقدِّم أملاً حقيقياً لتسوية شرق أوسطية ، وقد أوحت معلومات تسربت عمداً من البيت الأبيض بقائمة من العقوبات الممكن فرضها على إسرائيل إذا أظهر شارون تعنتاً كبيراً ، لكن سرعان ما تمَّ نفي تلك المعلومات ، كما توقف ذكرها مباشرةً.

ثمة إجماع برز لدى وسائل الإعلام على تقديم محتويات الوثيقة والعديد منها ألفناه في خطط سلامٍ سابقة كنتيجة للثقة التي اكتشفها بوش في نفسه حديثاً وتحديداً بعد نصره في العراق.

وكما هو حال معظم نقاشات الصراع العربي -الإسرائيلي ، فإن الكليشيهات المعالجة ببراءة والفرضيات التي جرى استحضارها من مكان بعيد توجه مجرى الخطاب بدلاً من أن تسيره حقائق التاريخ الفعلي والمعطيات الموجودة على الأرض ، أما الشكوك والانتقادات فهي تُهمل على أنها معادية لأميركا ، وقد شجب عددٌ من القيادات اليهودية المنظمة خارطة الطريق لأنهم وجدوا أنّها تستلزم الكثير من التنازلات

الإسرائيلية ، لكنَّ الصحافة الحكومية تواصل تذكيرنا بأن شارون تحدَّث عن " الاحتلال " الذي لم يسبق له أن أقرّ به حتى الآن وأنه أعلن فعلاً عن عزمه على وضع حد للحكم الإسرائيلي على ثلاثة ملايين وخمسمائة ألفٍ من الفلسطينيين ، لكن هل يعلم شارون شيئاً عما يقترح إنهاءه ؟

كان المعلق الصحفي جدعون ليفي قد كتب في صحيفة هآرتس في الأول من حزيران أن شارون – كما هو حال معظم الإسرائيليين – لا يعلم شيئاً عن حياة حظر التجول في المجتمعات التي ما تزال ترزح تحت الحصار منذ سنوات ، ماذا يعرف عن الإذلال الذي يُمارس عند نقاط التفتيش ؟ ماذا يعرف عن شعب يُجبر على التنقل على طرقاتٍ من الوحل والحصى سعياً وراء إسعاف امرأة في المخاض إلى المشفى ؟ أو عن الحياة علَى شفير الموت من الجوع ؟ ماذا يعرف عن المنزل المدمر ؟ عن الأطفال الذين يشاهدون آباءهم يُضربون ويُذّلون في منتصف الليل ؟.

هناك موضوع آخر تمّ حذفه بفتور من خارطة الطريق ، إنه "جدار الفصل" الهائل الذي تشيّده إسرائيل في الضفة الغربية حالياً ، ويمتد هذا الجدار الإسمنتي من الشمال إلى الجنوب على طول /٣٤٧/ كيلو متر ، وقد أُنجز منها /١٢٠/ كيلو متراً حتى الآن ، ويبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار و سماكته مترين ، كما تقدر كلفته بمليون وستمائة ألف دولار للكيلو متر الواحد.

لا يفصل الجدار بين إسرائيل وبين دولة فلسطينية يُزعم أنها ستؤسس على قاعدة حدود عام **١٩٦٧** فحسب ، بل ستترافق عملية بنائه باقتطاع رقع من الأرض الفلسطينية قد تصل أحياناً من خمسة إلى ستة كيلو مترات متواصلة طولاً ، والجدار محاط بالخنادق والأسلاك الكهربائية والخنادق المائية ، كما تنتشر أبراج المراقبة بفواصل منتظمة على امتداده. لقد مضى قرابة عقد من الزمن على نهاية نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا ، ومع ذلك يتم تشييد هذا الجدار العنصري الفاضح دون أن يتعرض – و فيما ندر – إلا لنقد طفيف من أغلبية الإسرائيليين ، أو من حلفائهم الأميركيين الذين سيمولون جلّ المشروع شاؤوا ذلك أم أبوا . ويقطن أربعون ألفاً من المواطنين الفلسطينيين في بلدة قلقيليا على أحد جوانب الجدار الذي يفصلهم عن أراضيهم التي يزرعونها و يعتاشون منها.

ويقدر عدد الفلسطينيين الذين سيفصلون عن أراضيهم بعد إتمام الجدار – الذي من المتوقع أن يتم إنجازه بمرور بضعة أشهر كحد أقصى وفقاً للجدال الدائر بين

الأمريكيين والإسرائيليين والفلسطينيين - بما يقارب ثلاثمائة ألف مواطن ، وتلتزم خارطة الطريق الصمت حيال هذه المسألة ، كما أنها لا تذكر شيئاً عن موافقة شارون في الفترة الأخيرة على بناء جدار عند الجانب الشرقي من الضفة الغربية إن ذلك سيؤدي - في حال حدوثه - إلى تقليص مساحة الأراضي الفلسطينية التي ستتاح للدولة التي تراءت لبوش في الحلم بما يقارب ٤ % من المساحة الكلية ، وهذا ما يدور في خلد شارون منذ البدء.

إن فكرة غير معلنة تستتر خلف موافقة إسرائيل المعدلة - بشكل كبير - على الخطة والالتزام الأمريكي الواضح بها: إنها النجاح النسبي للمقاومة الفلسطينية ، وهو أمر واقع سواء استنكر المرء بعض أساليبها ، وأسف لتكاليفها الباهظة ، وللضريبة الكبيرة التي يدفعها جيل آخر من الفلسطينيين ممن رفضوا الإذعان للتفوق الكاسح للقوة الأمريكية الإسرائيلية أم لا.

لم يُترك مبرر إلا و تمّ تقديمه لتسويغ ظهور خارطة الطريق فتارة يقولون أن ستة وخمسين بالمئة من الإسرائيليين يساندونها ، وأخرى أن شارون قد رضخ أخيراً للواقع الدولي ، أو أن بوش يحتاج الغطاء العربي- الإسرائيلي في مغامراته العسكرية في مناطق أخرى من العالم وثمة مبرر مفاده أن الفلسطينيين قد عادوا إلى رشدهم أخيراً فاختاروا أبا مازن يُعرف محمود عباس بهذا الاسم المستعار - إن جاز التعبير- على نطاق أوسع) ممثلاً لهم ، وهلمّ جرا ...

إن بعض تلك المبررات صحيح ، لكنني أؤكد أنه لولا ثبات الفلسطينيين في رفضهم أن يكونوا " شعباً مهزوماً " ، كما وصفهم مؤخراً رئيس الأركان الإسرائيلي لما كان هناك من خطة سلامٍ ، علاوة على ذلك إن كل من يصدق أن خارطة الطريق تقدم أية تسوية أو أنها تعالج المسائل الأساسية فهو مخطئ ، وكما هو حال معظم خطاب السلام السائد ، إن الخارطة تضع أعباء القيود والتضحيات والتخلي عن الحقوق على عاتق الفلسطينيين بشكل قاطعٍ ، وهي بهذا تجحد كثافة وثقل التاريخ الفلسطيني برمته ، عند قراءتك لخارطة الطريق ستجد فيها وثيقة غير واقعية ، كما أنها لا تتلاءم مع الزمان أو المكان اللذين وجدت بهما.

ليست خارطة الطريق خطة للسلام بقدر ما هي خطة لمعاهدة صلح ، يُراد منها وضع حدٍّ لفلسطين كمشكلة ، ومن هنا كان هذا التكرار لكلمة " الأداء " ضمن سياق الوثيقة النثري المملّ ، وهي بتعبير آخر - الطريقة التي يُنتظر أن يتصرف بها الفلسطينيون ، لا عنف ، لا احتجاج ، المزيد من الديمقراطية ، قادة ومؤسسات أفضل

– كل هذا قائم على الحماقة القائلة بأن المشكلة الأساسية تتمثل في وحشية المقاومة الفلسطينية ، وليس في الاحتلال الذي لولاه ما كانت تلك المقاومة.

في المقابل لا يُنتظر من إسرائيل التخلي عن تلك المستوطنات الصغيرة ، التي تحدثت عنها مسبقاً والتي تُعرف بـ: " المستوطنات الأمامية اللا شرعية " (هذا تصنيف جديد كلياً يوحي بأن بعض المستوطنات الإسرائيلية الأخرى تكتسب شرعية التواجد على الأرض الفلسطينية .) أما بالنسبة للمستوطنات الرئيسية فليس على إسرائيل إلا " تجميدها " ، وليس إزالتها أو تفكيكها بالتأكيد.

لم يُذكر شيء عما عاناه الفلسطينيون على أيدي إسرائيل والولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٨ ، ومرة أخرى منذ عام ١٩٦٧ ، لا شيء عن إعاقة التنمية التي يتعرض لها الاقتصاد الفلسطيني ، عن تدمير المنازل ، أو عن اقتلاع الأشجار ، عن السجناء (هناك خمسة آلاف سجين على الأقل) ، وعن سياسة الاغتيالات الموجهة ، عن عمليات إغلاق الحدود منذ عام ١٩٩٣ والتدمير الشامل للبنى التحتية أو عن العدد الهائل لحالات الوفاة والإعاقة الجسدية ، كل ذلك وأكثر يمر دون أن يشار إليه بكلمة. إن التهجم الوحشي والتصلب أحادي الجانب اللذين يتميز بهما فريقا أميركا وإسرائيل غنيان عن التعريف ، وعلى الجانب الآخر بالكاد يوحي الفريق الفلسطيني بالثقة إذا أنه يتألف من عصبة رجال عرفات المسنين والمكررين.

في الواقع لقد أعطت الخارطة عرفات فرصة جديدة للحياة ، برغم كل المساعي المدروسة التي بذلها باول ومساعدوه لتجنب زيارته ، ما يزال عرفات يسيطر على الأمور. رغم السياسة الإسرائيلية الغبية التي ارتأت أن تذله عن طريق عزله في مجمع مدمرٍ على نحو رديء هو ما يزال الرئيس الفلسطيني المنتخب ، إنه يقبض على زمام الإنفاق والخزينة (البعيدة عن الامتلاء) ، ولا يمكن لأحدٍ من فريق " الإصلاح " الحالي أن يضاهي الرجل العجوز من حيث القدرة والنفوذ وهو في وضعه الراهن.

أبو مازن على سبيل المثال ، قابلته أول مرة في آذار عام ١٩٧٧ خلال أول اجتماع أحضره للمجلس الوطني في القاهرة ، وقد ألقى حينها خطبة كانت أطول بكثير من غيرها ، كما اعتمد فيها أسلوبه المواعظي الذي لا بد أنه اكتسبه أثناء عمله كمدرس في مدرسة ثانوية في قطر ، وفسّر من خلالها للبرلمانيين الفلسطينيين المجتمعين الفوارق بين الصهيونية وبن المنشقين عنها ، كانت مداخلته جديرة بالاهتمام ، إذ لم تكن لدى معظم الفلسطينيين في تلك الأيام أدنى فكرة عن أن إسرائيل لا تتكون من

الصهاينة المتعصبين الذين يبغضهم سائر العرب فحسب ، بل من مجموعات متنوعة من دعاة السلام و الناشطين أيضاً. وإذا عدنا إلى ما حدث عندها ، سنجد أن خطبة أبي مازن أطلقت حملة منظمة التحرير الفلسطينية للاجتماعات – التي كانت سرية بمعظمها – بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، فكان لتلك النقاشات الطويلة في أوروبا حول السلام الأثر الهام في تشكيل التأييد الجماهيري له في كلٍّ من المجتمعين ، هذا التأييد الذي مكّن من صنع أوسلو.

ومع ذلك ، لا يشكك أحد في أن عرفات أقرّ بخطبة أبي مازن وبالحملة التي تلتها والتي أودت بحياة رجال شجعان مثل عصام سرطاوي وسعيد حمامي.

كان المشاركون الفلسطينيون ينتمون إلى مركز السياسة الفلسطينية (وأعني به منظمة فتح) بينما أتى الإسرائيليون من مجموعة صغيرة مهمشة من داعمي السلام المنبوذين ، لذلك كانت شجاعتهم جديرة بالثناء.

خلال سنوات منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ما بين عامي **١٩٧١-١٩٨٢** كان أبو مازن مقيماً في دمشق ، لكنه انضم بعد ذلك إلى عرفات المبعد وطاقمه في تونس وأقام معه في السنوات العشر اللاحقة أو ما يقاربها ، وقد قابلته هناك عدة مرات وأعجبت بالتنظيم الجيد في مكتبه ، وبأسلوبه الهادئ البيروقراطي وباهتمامه الواضح بأوروبا والولايات المتحدة كميادين للعمل المساعد للفلسطينيين من أجل تعزيز السلام وقيل أنه – بعد مؤتمر مدريد **١٩٩١** – جمع بين مستخدمي منظمة التحرير وبين مفكرين مستقلين في أوروبا ، وشكل منهم فرقاً عملت على إعداد الملفات التفاوضية في عدد من المواضيع كالمياه ، واللاجئين ، و التوزّع الديموغرافي والحدود ، وذلك في الفترة التي سبقت ما أصبح يعرف باجتماعات أوسلو السرية. على الرغم من ذلك ووفقاً لما أعرفه لم يُستخدم أيٌّ من تلك الملفات و لم يضطلع أيٌّ من الخبراء الفلسطينيين في المحادثات ، كما لم تؤثر نتائج تلك المباحثات على الوثائق النهائية التي خرجت للنور.

في أوسلو جنّد الإسرائيليون جماعة من الخبراء المزودين بالخرائط والوثائق والإحصاءات وبسبعة عشر مخططاً أولياً – على الأقل – قد ينتهي الفلسطينيون إلى التوقيع عليها ، بينما نأسف أن الأخيرين حصروا مجموعتهم التفاوضية بثلاثة من رجال منظمة التحرير لا يفقهون شيئاً عن الإنكليزية ، ولا يمتلكون أية خلفية في القانون الدولي أو غيره من ضروب القانون.

يبدو أن عرفات أراد أن يستخدم فريقاً يؤمن له البقاء في العملية بشكل رئيس ، خاصة بعد خروجه من بيروت وبعد القرار الكارثي الذي اتخذه بالوقوف إلى جانب العراق في حرب الخليج عام ١٩٩١ وإذا كان يحتفظ بغايات أخرى في رأسه ، فلا بد أنه لم يرتبها جيداً كعادته.

كتب أبو مازن في مذكراته: " عبر القنوات السرية : الطريق إلى أوسلو "(١٩٩٥) كما ذكر في أكثر من سرد قصصي آخر تناول فيه مناقشات أوسلو أنه نال شرف أن يكون "مهندس" الاتفاقات. على الرغم من أنه لم يغادر تونس ، لكنه ذهب بعيداً إلى حدّ القول أنه استغرق عاماً كاملاً بعد المراسم الاحتفالية (حيث ظهر إلى جانب عرفات ، رابين ، بيريز ، كلينتون) ليتمكن من إقناع عرفات بعدم إمكانية الحصول على دولة فلسطينية خارج نطاق أوسلو ، مع ذلك تشدّد معظم الروايات التي تتناول محادثات السلام على أن عرفات كان يبسط نفوذه على الوفد الفلسطيني المفاوض. لا غرابة في أن مفاوضات أوسلو جعلت من الوضع الفلسطيني برمته يتدهور بشكل كبير (ذلك لأن الفريق الأمريكي برئاسة دينيس روس – وهو مستخدم سابق لدى اللوبي الإسرائيلي ، وقد استعاد وظيفته الآن – ساند الموقف الإسرائيلي كالعادة علماً بأن ذلك الموقف تجسد بعد عقد كامل من التفاوض بالإصرار على عدم التخلي للفلسطينيين إلا عن ١٨ % من الأراضي المحتلة وفقاً لشروط بالغة السوء ، على أن تتحمل قوات الدفاع الإسرائيلية " **IDF** " مسؤولية الأمن والحدود والمياه ، وقد تكاثرت المستوطنات منذ ذلك الحين حتى تجاوزت ضعف عددها وذلك بقدرٍ كافٍ من اللاشرعية.)

منذ أن عادت منظمة التحرير إلى الأراضي المحتلة عام (١٩٩٤) ظل أبو مازن شخصية من الدرجة الثانية ، كما أنه عُرف عالمياً بـ "مرونته" تجاه إسرائيل ، وتبعيته لعرفات ، وبافتقاره لقاعدة سياسية منظمة على الرغم من أنه واحد من مؤسسي حركة فتح ، وعضو دائم فيها ، وأمين عامٌّ للجنتها المركزية ، لم يُنتخب في فلسطين لأيّ منصب حتى الآن ، وبالأخص لعضوية المجلس التشريعي.

لا يمكننا أن نسمَ منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية بقيادة عرفات بالشفافية ، أما عملية صنع القرار فيكتنفها تعتيم كبير ، و هذا هو حال إنفاق الأموال ، كيف يتم إنفاقها ؟ أين هي تلك الأموال ؟ ومن يستطيع - غير عرفات - أن يتقدم بمعلومة تتعلق بالمسألة ؟

كما تتفق سائر الآراء على أن عرفات القيّم الصغير الشيطاني على المال ، الذي

يستأثر بوسائل السيطرة ، ما يزال – تبعاً لشتى الأوجه والسّبل – الشخصية الفلسطينية المركزية ، لذلك يرى معظم الفلسطينيين أن ترقية أبي مازن إلى مرتبة رئيس الوزراء الإصلاحي – الترقية التي ترضي الأميركيين والإسرائيليين – كنوع من الدعابة إنها طريقة الرجل العجوز في المحافظة على السلطة ، وذلك بابتكار وسيلة جديدة للمخادعة .

والفكرة السائدة عن أبي مازن أنه رجلٌ حيادي ، معتدل في فساده لا يمتلك أفكاراً شخصية واضحة عدا أنه يستجدي رضا الرجل الأبيض ، كما هو الحال بالنسبة لعرفات لقد أمضى حياته في الخليج وسوريا ولبنان وتونس ، أما الآن فهو يعيش في فلسطين المحتلة. لا يجيد إلا اللغة العربية ولا يتمتع بروح الخطابة أو بالحضور الشعبي.

على النقيض منه نجد محمد دحلان الشخصية التي تحمل قدراً أكبر من البشائر ، والذي يعوّل عليه الإسرائيليون والأمريكيون أملاً كبيراً إنه أكثر شباباً وذكاءً كما أنه لا يعرف الندم ، وقد عُرفت غزة باسم " دحلانستان " خلال السنوات الثمان التي أدار فيها أحد أجهزة عرفات الأمنية الأربعة عشر ، لقد استقال العام المنصرم من منصبه ، ليعود الأوربيون والأميركيون والإسرائيليون إلى استخدامه في وظيفة " رئيس الأمن الموحَّد " رغم أنه كان بدوره أحد رجال عرفات ، ويتوقع منه الآن أن يفرض إجراءات صارمةً على حماس والجهاد الإسلامي: منفذاً بذلك أحد طلبات إسرائيل المتكررة ، التي تعكس أملها بأن يحدث ما يشبه حرباً أهلية بين الفلسطينيين ، الأمل الذي تلمع له عيون العسكريين الإسرائيليين.

على أية حال ، يبدو من الواضح بالنسبة لي أنه مهما حاول أبو مازن من جهد ومهما كان مرناً في " أدائه " ، ستحدُّ معوقاتٌ ثلاثةٌ من هذا الأداء ، وعرفات الذي ما زال يسيطر على فتح هو أول هذه المعوقات طبعاً ، وثانيها هو شارون (الذي من المتوقع أن تسانده الولايات المتحدة على طول الطريق). نشرت صحيفة هآرتس في السابع والعشرين من أيّار قائمة من أربع عشرة "ملاحظة" تتعلق بخارطة الطريق ، يلفت فيها شارون إلى القيود الصارمة التي سيجري فرضها على جميع ما يمكن أن يترجم كمرونة إسرائيلية.

أمّا ثالث المعوقات فيتمثل في الرئيس الأمريكي جورج بوش وبطانته ، فبالنظر إلى أسلوب معالجتهم للحروب السابقة في أفغانستان والعراق ، لن نجد لدى هؤلاء لا الجدارة ولا الرغبة في بناء الأمم. وقد سبق للقاعدة المسيحية في الجنوب ، التي تشكّل

الجناح اليميني لجورج بوش أن عارضت بشدة فرض أية ضغوط على إسرائيل ، كما سبق للوبي الأمريكي المؤيد لإسرائيل الذي يتمتع بنفوذ واسعٍ وللكونغرس الأميركي المساعد الطيِّع له أن لوَّحا بالعمل ضد أي تلميحٍ لممارسة القسر عليها ، على الرغم من أن بداية مرحلة نهائية باتت أمراً حاسماً الآن .

قد يبدو لي ضرب من الخيال أن نقول أنه حتى إن كانت الفرص ضئيلة من المنظور الفلسطيني ، لن تكون قائمة في مجملها ، سأعود إلى الصلابة التي ذكرتها سابقاً ، وإلى أن المجتمع الفلسطيني المدمر الذي يوشك أن ينهار ، وقد تم التخلي عنه بمختلف السبل ما زال كطائر السمنة في رواية توماس هاردي[٧] قادراً على النهوض متعالياً على مأساته المتنامية. ليس هناك مجتمع عربي يضاهيه في متانته وتمسكه بالصواب ، ليس بينها من يتميز بنفس القدر من روح المبادرة المدنية و الاجتماعية التي يتمتع بها ، أو لديه عدد من المؤسسات الفعالة مشابه لذلك الذي للمجتمع الفلسطيني (بما في ذلك المعهد الموسيقي المذهل في حيويته) .

على الرغم من أن فلسطينيي الشتات يفتقرون للتنظيم ، كما يحيا بعضهم حياةً تعيسة في ظل النفي وانعدام الدولة ، إلا أن المشكلات التي تحيط بمصيرهم المشترك ما زالت شغلهم الشاغل ، وكل من أعرفه منهم يناضل بشكلٍ أو بآخر لدفع القضية إلى الأمام ، إن نسبة ضئيلة منهم قد وجدت طريقها إلى السلطة الفلسطينية ، التي كانت ستظل غريبة على الهامش لا تشاركهم وحدة المصير لولا شخصية عرفات بالغة التناقض.

تقاسمت حركتا فتح وحماس قرابة خمسة وأربعين بالمئة من أصوات الناخبين الفلسطينيين في عمليات اقتراع جرت مؤخراً ، بينما ذهبت الخمسة والخمسون بالمئة المتبقية لتدعم تشكيلات سياسية مختلفة تماماً تبشر بوعودٍ أكبر .

لقد فُتنت بأحد تلك التشكيلات على وجه الخصوص (كما أنني التحقت بركبها) لأنها وحدها توفِّر الأساس الأصيل ، وهي تنأى بنفسها عن الأحزاب الدينية وسياستها التعصبية الضيقة في جوهرها ، وعن القومية التقليدية التي يقدمها العجائز (وليس الشباب منهم) من ناشطي فتح العرفاتيين ، إنها تدعى بالمبادرة الوطنية السياسية (**NPI**) ، و الشخصية الرئيسية فيها هو الدكتور مصطفى البرغوثي الذي

---

(٧): توماس هاردي: روائي وشاعر بريطاني عاش من عام (١٨٤٠) إلى عام (١٩٢٨) ويتحدث في أحد أعماله :"طائر السمنة الداكن " عن: " طائر سمنة مسن ضعيف وهزيل صغير الحجم ، يمتلئ ريشه بالآفات ، اختار أن ينهض متعالياً على مأساته المتنامية."

تلقى تدريبه الطبي في موسكو ، والذي شغل - كمهنة رئيسية له - منصب مدير جمعية الإسعاف الطبي في الريف المثيرة للإعجاب ، إذ أنها أمَّنت الرعاية الطبية لأكثر من مئة ألف ريفي من الفلسطينيين.

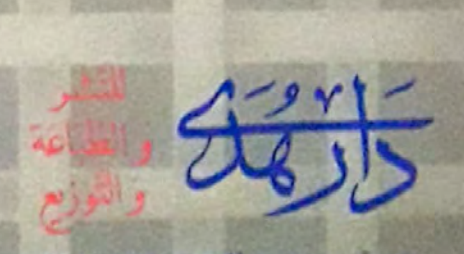
تغلب البرغوثي - العضو السابق والراسخ الإيمان في الحزب الشيوعي ، والمنظم قليل الكلام - على المعوقات المادية التي تعرقل حركة الفلسطينيين أو سفرهم إلى الخارج ، ليحشد أصوات معظم الأفراد المستقلين والمنظمات خلف برنامج سياسي يبشر بالإصلاح الاجتماعي إلى جانب التحرير عبر مبادئ عقائدية ، لقد بنى حركة تضامنية تتمتع بأسلوب إداري جيد يثير الحسد ، وتزاول التعددية والتعايش اللذين تدعو لهما.

لا تتوقف المبادرة الوطنية السياسية عند الانتفاضة المعسكرة التي ينقصها التوجيه ، إنما تقدم برامج تدريبية للعاطلين عن العمل وخدمات اجتماعية للمعوزين انطلاقاً من أن تلك الأعمال تشكل رداً على الظروف الراهنة وعلى الضغوط الإسرائيلية ، والأهم من ذلك كله أن الـ (**NPI**) ، التي بات الاعتراف بها كحزب سياسي أمراً وشيك الحدوث ، تسعى إلى تعبئة المجتمع الفلسطيني في الوطن وفي المنفى بهدف إجراء انتخابات حرة على قاعدة من الثقة ، بحيث تعبِّر عن المصالح الفلسطينية بدلاً من المصالح الإسرائيلية أو الأميركية . ويبدو أن الطريق المهيأ لأبي مازن عاجزٌ عن اكتساب هذه الثقة.

والرؤيا هنا ليست دولةً مصنعة مؤقتة تقتصر على أربعين بالمئة من الأرض ، مع التخلي عن اللاجئين وعن القدس ، لكنها دولةٌ ذات سؤددٍ ، دولة متحررةٌ من الاحتلال العسكري ، تحررها مقاومةٌ شاملة على أيدي العرب واليهود حيث يكون ذلك ممكناً ، إذ أن المبادرة الوطنية السياسية هي حركة فلسطينية أصيلة تتبنى الإصلاح والديمقراطية في ممارساتها اليومية ، وقد باشرت إجراء اجتماعاتها التنظيمية ، و رغم العوائق الهائلة التي تحدُّ من القدرة على السفر ، يتزايد عدد تلك الاجتماعات في فلسطين وفي الخارج.

في الوقت الذي تتواصل المفاوضات و النقاشات الرسمية ، قد نجد بعض العزاء في بروز مجموعة من البدائل اللا رسمية وغير المرغوب بها رسمياً ، والتي تعتبر المبادرة الوطنية السياسية وما نشهده اليوم من حملة تضامنٍ دولية نامية عنصرين من عناصرها الرئيسية.

الفهرس



سورية - حمص - خليوي: ٠٩٦٧٠١٥٢٨ ٧٠١٥٢٨ ٠٩٦

دار الحقائق

حمص - بناء نقابة المعلمين - مقابل الساعة الجديدة
هاتف : ٤٧٨٩٢٧ AL_hakaek@naseej.com